د. عائض بن عبدالله القرني

التفسير الميسر

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله
التفسير الميسر/ عائض بن عبدالله القرني. - ط٣ . - الرياض، ١٤٢٩هـ
٧٥٢ ص؛ ٢٠ × ٥ , ٢٧ سم.
ردمك: ٤ - ٤٢٧ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي ٦ , ٢٢٧ ١١٨٤ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١١٨٤ / ١٤٢٩
ردمـــــك: ٤ - ٤٢٧ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

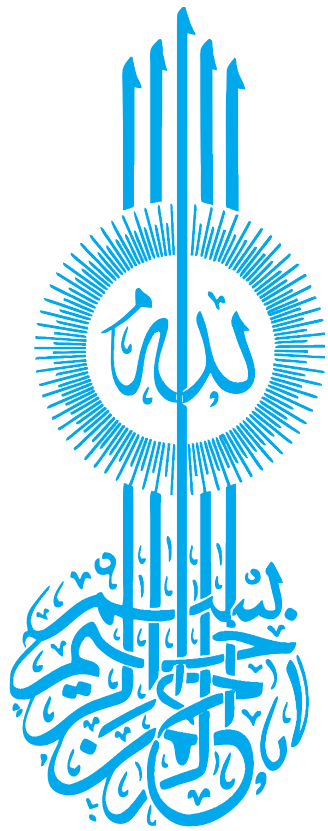
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فهذا تفسير يسير سهل قريب قدمتُ فيه المعاني بأسلوب مفهوم، ولغة واضحة، فلا أذكر فيه الآيات المتشابهة بل أبقيها في مواضعها، وكذلك لا أورد أحاديث ولا آثاراً إلا فيما ندر باختصار، وقد أعرضتُ عن الأقوال والخلافيات، وعمدتُ إلى الراجح والظاهر من الآية، ولم أورد فيه شواهد شعرية، ولم أبحث مسائل نحوية ولا قضايا لغوية ولا وجوه قراءات، ولا إسرائيليات ولا نقولات عن العلماء ولا استطرادات، وإنما اقتصرت على زبدة القول، وخلاصة الكلام، وربما أذكر بعض الحِكَم واللطائف والفوائد والأسرار - إذا وُجدت - بإيجاز، وقد التزمتُ منهج السلف أهل العلم والإيمان، وجانبتُ مذاهب المخالفين لهم.

ولأن القرآن كتاب هداية ورشد، حرصتُ على بيان هذا الهدي، فاطَّرحت الأقوال الغريبة والشاذة والضعيفة والبعيدة، وحرصتُ على القول الصحيح الثابت المشهور.

أسأل الله الحي القيوم أن ينفعني بهذا التفسير، وينفع به من طالعه أو سمعه، أو طبعه أو وزّعه، ويجعله سببًا لي ولهم في نيل رضوانه، والفوز بسكنى جنانه، إنه سميع مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عائض بن عبدالله القرني

مكية

ترتيبها ١

سورة الفاتحة

آياتها ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

أبتدئ مستعينًا بالله متوكلاً عليه، وذكر اسم الله؛ لأنه الاسم الأعظم الذي تضاف له كل الأسماء الدالة على كمال الألوهية واستحقاقه للعبودية، والرحمن واسع الرحمة، وهي عامة لكل مخلوق، والرحيم بأوليائه من الأنبياء والصالحين، والأسماء والصفات تثبت على الحقيقة المرادة منها في الكتاب والسنة.

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الثناء على الله بأوصاف الكمال، فهو المحمود على كل حال، فرحمته فضل، وعذابه عدل، وهو الرب الذي خلق ورزق، وربَّى جميع المخلوقات عُمُومًا، وربَّى أولياءه بالإيمان والعلم خصوصًا، فلهذا استحق الحمد، فهو كامل الغنى عن غيره، وغيره كامل الفقر إليه.

(٣) ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

أعاد الرحمن الرحيم لأن رحمته سبقت غضبه؛ ولأن رحمته وسعت كل حيٍّ، وعمّت كل مخلوق.

(٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

هو الحاكم ليوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، وإنما خص يوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة؛ لأنه يظهر للخلق تمام ملكه في ذلك اليوم، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره، ويوم الدين يوم يدان الناس فيه بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فالواجب تذكُّر ذلك الموقف وإعداد العدة له.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

لك وحدك عبادتنا، وبك وحدك استعانتنا، فحقك علينا أن نعبدك ولا نشرك بك شيئًا، ولكن هذا لا يتم إلا بعون منك، والعبادة كل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال، والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المحبوب ودفع المكروه، وقَدَّم الضمير «إياك» على الفعل لإفادة قصر العبادة على الله والاستعانة به وحده.

(٦) ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

أرشدنا إلى الطريق الواضح الموصل إلى رضوانك وجنتك باتباع أمرك واجتناب نهيك.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

وهذا الطريق الواضح هو طريق الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، وليس طريق من عرف الحق ولم يعمل به، كاليهود، ولا طريق من ترك الحق عن جهل وضلال كالنصارى.

مدنية

ترتيبها ٢ **سورة البقرة** آياتها ٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾

الله أعلم بمراده من هذه الحروف العربية، وأقرب الأقوال أن فيها إظهاراً لعجز المعارضين عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع نزوله بحروف لغة العرب التي يعرفونها.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

هذا القرآن العظيم الذي لا يماثله كتاب في صدقه وبركته وبلاغته، وهو لا شك فيه بل فيه اليقين التام، وهو المزيل لكل حَيْرة وشرك وشبهة، وهذا الكتاب مرشد لمن اهتدى به لخير الدارين، فهو يدله على الهدى، ويجنبه الردى، ولا ينتفع به إلا المؤمنون به، وهم من تقربوا من رحمة الله بطاعته، وابتعدوا عن عذابه باجتناب معصيته.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء المتقون يُصَدِّقون بما أخبر به الرسول ﷺ من أخبار الغيب؛ كالقيامة، والجنة والنار، والأخبار الماضية والمستقبلة، ويؤدون الصلاة على أكمل وجه، ولم يقل: يصلون، بل يقيمون، أي: بخشوعها وبشروطها وسننها، فتنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وهم ينفقون مما رزقهم الله في الزكاة والصدقة والصلة، ووجوه البر وأنواع القربات ولا يدخرون شيئًا في ذات الله، فالرزق من الله لا منهم، وينفقون بعضها لا كلها.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾

وهم الذين يصدقون بما نزل على محمد ﷺ، ويصدقون بما نزل على الرسل قبله من الكتب - والمؤمنون يؤمنون بجميع الكتب، وجميع الرسل بلا تفرقة - وهم يعلمون علم يقين أن اليوم الآخر حق، وأن الله يجمع الناس ليوم لا ريب فيه ليحاسبهم.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

هؤلاء على هدى عظيم من خالقهم ورازقهم؛ لأنهم فعلوا ما أمر به، واجتنبوا ما نهى عنه، فلا هدى أعظم من هداهم، وهم فازوا بالمطلوب، ونجوا من المرهوب؛ لأنهم سلكوا سبل النجاة، وحادوا عن طريق الهلاك.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

أما من كفر بالله ورسوله ﷺ فسواء وعظتهم أم لم تعظهم فلن يجدي فيهم الوعظ، ولن ينفعهم الذكر، ولن يصدقوا بما جئت به؛ لأنّ أعينهم في غطاء عن ذكر الله.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

فالله حجب الحق عن قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر، وغَطَّى على أسماعهم، وغَشَّى أبصارهم، فمنافذ العلم عندهم مغلقة، فلا يفهمون الحق، ولا يسمعون الهدى، ولا يبصرون الرشد، وقد أعد الله لهم في الآخرة عذابًا لا يُطاق في نار جهنم جزاءً لأعمالهم.

﴿٨﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وهناك صنف منافق من الناس يظهر غير ما يبطن، فهو مؤمن باللسان، كافر بالجَنان، يدّعي أنه مصدق بما جاء عن الله، والحقيقة أنه في سره مكذب، وما دخل الإيمان قلبه.

﴿٩﴾ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وهؤلاء يظنون أنهم بهذا الكلام يحتالون على الله وعلى عباده الصالحين، وأن هذه الحيلة سوف تستقيم، ولكن هيهات، فهم يلعبون على أنفسهم، ويسعون في هلاكهم، وما يستخفّون إلاّ بأنفسهم، وما يقطعون إلا وتينَهم ولكن لا يدرون، فهم جاهلون بقبيح ما يفعلون، غافلون عن سوء ما يصنعون.

﴿١٠﴾ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

في قلوبهم مرض الشبهة والتكذيب، وزادهم الله بزيغهم حيرة وشكًا واضطرابًا؛ لأن جزاء السيئة السيئة، وثواب الحسنة الحسنة، وقد أعد الله لهم عذابًا مؤلمًا، في الدنيا بأنواع المثلات، وفي الآخرة بأصناف العقوبات؛ لأنهم كذّبوا بالصدق وكذبوا في القول، وأساؤوا الفعل، فالكذب أصل خطاياهم.

﴿١١﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

إذا نُصح هؤلاء المنافقون بترك أفعالهم الشنيعة؛ لأن فيها فسادًا في الأرض، فهم أسباب النفاق والشقاق، وقبيح الأخلاق، وتفريق الجمع، ادعوا كذبًا أنهم يريدون الخير والنفع العام، وهذا شأن كل مفسد.

﴿١٢﴾ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

لكن هؤلاء المنافقين هم المفسدون الذين لا أشد إفسادًا منهم، فهم فاسدون في أنفسهم لاعتقاداتهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، مفسدون لغيرهم لسعيهم بالفتنة بين الناس، ولكنهم مع ذلك لا يدرون بفسادهم، فقد انقلبت الأمور، وانعكست عليهم المقاصد، فصار الشر عندهم خيرًا، والباطل حقًا، ومن لم يعلم بفساده كان أجدر ألا يعود إلى الحق، ويكفيهم خزيًا أنّ الله كَذَّبهم، ومما قيل: كفى لصاحب الكذب فضيحة أن يقال له في وجهه: كذبت.

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وإذا طُلب من هؤلاء المنافقين أن يدخلوا في الدين ويتبعوا الرسول ﷺ كما فعل المؤمنون، قالوا كيف نفعل مثل فعل هؤلاء الجُهلاء السفهاء - يقصدون الصحابة - لأن من ضحّى في سبيل الله، وأوذي من أجله، وتعرض للأخطار عندهم مخالف للعقل المعيشي الجبان الذي يدندن على الشهوات واللذات، فردَّ الله عليهم وبيّن أنهم هم الجهلة الأغبياء؛ لأنهم فوتوا أعظم المصالح، وخسروا أجلَّ المطالب، ووقعوا في أخطر المهالك، وعثروا في أودية الحسرات ومع ذلك لا يعلمون سوء ما فعلوه، وقبيح ما ارتكبوه، فانحرافهم لا يُرجى الرشد بعده.

﴿١٤﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

هؤلاء المنافقون إذا خالطوا المؤمنين أظهروا الإيمان بألسنتهم، وأبطنوا الكفر في قلوبهم؛ ليحقنوا دماءهم، ويعصموا أنفُسَهم، ويحفظوا أموالهم، لكن إذا رجعوا إلى أتباعهم ومن هم على شاكلتهم في الكفر قالوا: نحن معكم فيما تعتقدون، وإنما خدعنا هؤلاء المؤمنين وضحكنا عليهم، وإلا فنحن لسنا معهم ولا نَدِين بدينهم، أرادوا أن يجمعوا بين عشرة الكافرين وصحبة المسلمين، فلم يستقم لهم ذلك؛ لأنه لا يجتمع الضدّان.

﴿١٥﴾ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

الله يستهزئ بهم جزاء استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، ويمهلهم حتى يتمادوا في طغيانهم وظلمهم وغوايتهم وانحرافهم، وهم في غفلة وعمهٍ عن هذا.

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾

هؤلاء المنافقون دفعوا الهدى الذي بُعث به محمد ﷺ ثمنًا للضلالة التي شروها ورغبوا فيها، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فبئس والله تجارتهم، وخسرت صفقتهم، وخاب بيعهم، فمن هذا منهجه فلن يهتديَ أبدًا.

(١٧) ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾

مثلهم مثل من كان في ظلمة عظيمة، ثم أوقد نارًا فلما أبصر بها ما حوله أطفأ الله عليه تلك النار فبقي في ظلمة لا يرى شيئًا، وهؤلاء أضاء لهم الإسلام في الدنيا فحقن دماءهم، وحفظ أموالهم، ثم توفاهم الله فأخزاهم وعذَّبهم، ونكَّل بهم.

(١٨) ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾

فهم لا يسمعون الحق، ولا ينطقون به، ولا يرونه، وإن كانت حواسّهم سليمة، فهم لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها، ولا إلى الهدى بعد أن باعوه.

(١٩) ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

أو مثلهم كمثل من أصابه مطر عظيم مع ظلمة ليل وظلمة سحاب وظلمة مطر، فصوت الرعد يزعجه، ورؤية البرق تخيفه، والمنافقون إذا سمعوا القرآن خافوا من وعيده، وراعتهم أوامره، ونفروا من تعاليمه، فهم يَسُدُّون آذانهم عن سماعه، ومع هذا فالله قادر عليهم لا يفوتونه، محيطٌ بهم لا يُعْجِزونه.

(٢٠) ﴿ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

كما يوشك البرق أن يذهب ببصر من رآه، فكذلك زواجر القرآن توشك أن تذهب برؤية من لم يهتدِ به، والمنافقون ينتفعون بالإسلام انتفاعًا دنيويًا ظاهرًا في الحياة الدنيا في حقن الدماء، وحفظ الأموال، كما ينتفع من يمشي في ضوء البرق زمنًا قصيرًا ثم تطبق عليه الظلمة، كذلك المنافقون في حيرة وشك، ثم عذابٌ دائم في نار جهنم، مع أنه من المعلوم أن الله قادر على طمس أبصارهم وأخذ أسماعهم؛ لأن الله لا يعجزه شيء لكمال قدرته جل في علاه.

(٢١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

المستحق للعبادة هو الله -جل في علاه- فلا يجوز أن يُشرك معه في ألوهيته أحد؛ لأن الربوبية له، فهو الخالق للناس وحده لا سواه، فالخالق أحق أن يُعبد، نادى الله عباده - وهذا أول نداء في القرآن - وأمرهم أن يعبدوه فهو خالقهم وخالق من قبلهم ، والرب حقيق أن يُعْبَد، والعبد حقيق أن يَعْبُده؛ ليتقي سخطه وأليم عقابه، وهذه العبادة هي مقصود الله من الخليقة، ومن أجلِ عبادته أوجد الخلق وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فهي المقصود الأعظم، والمطلب الأسمى.

(٢٢) ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

أليس الله هو الذي مهَّد الأرض كالفراش للناس، ووطأها لهم ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بأنواع النعم عليها، وصيّر السماء سقفًا لهذه الأرض، وجعل فيها ما ينفع الإنسان من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ثم أنبت - سبحانه - بالماء الذي أنزله أنواع الثمار والحبوب من فواكه وخضراوات مما لذَّ وطاب وراق العينَ، ولذّ في الفم، وما دام أن الرازق هو الله، فهو أحق أن يُشكر وحده، فكيف تعبدون غيره، وأنتم تعلمون أن لا خالق ولا رازق غيره.

٢٣ ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

إن كنتم شاكين في هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ فتعالوا بسورة من مثله في البيان والبلاغة، فأنتم أهل فصاحة وبلاغة، والكلام متاح لكم، واستعينوا بمن شئتم به من أعوانكم ليساعدوكم على معارضة هذا القرآن بسورة مثل إحدى سوره، إن كنتم صادقين أنكم تستطيعون المعارضة والتحدي، ولكن هيهات، لقد أُفحِموا - والله - غاية الإفحام، وهُزموا شرَّ هزيمة.

٢٤ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

فإن لم تستطيعوا على هذه المعارضة ولن تستطيعوا؛ لأن القرآن كلام الحكيم الخبير فارحموا أنفسكم بالإيمان بالله؛ لينجيكم من نار تلظَّى، فلن يُتَّقى عذابه إلا باتباع رسوله ﷺ، وأنتم لا تقدرون على عذاب النار التي تشتعل بالناس وبالحجارة، والله جعلها مثوى من كفر به سبحانه. [وفيها أن المؤمن العاصي لو عُذب في النار لا يخلَّدُ فيها كما يُخلَّدُ الكفار].

٢٥ ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وبشِّر - يا محمد - عبادنا الصالحين من أتباعك بما أعددنا لهم من النعيم المقيم، والخير العميم جزاءً لإيمانهم وأعمالهم الصالحة من توحيد وصلاة وصيام وصدقة وحج ونحوه، فهم في جنة ثمراتها متشابهة الألوان، مختلفة الطعوم حتى يخيّل إلى مَنْ سكنها أن الثمرة إذا قُدمت له بعد الثمرة أنها هي أعيدت له، وهي مختلفة في ذوقها؛ لزيادة النعيم، وعندهم زوجات جميلات ناعمات مطهرات مما يَعْرض لنساء الدنيا من نجاسات وقاذورات وأخلاق رديئة، ومع هذا النعيم فهم مقيمون أبدًا، متنعمون سرمدًا لا ينقطع عنهم النعيم ولا يخافون الزوال والانتقال.

٢٦ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

الله لا يستحيي أن يضرب الأمثال بما شاء من خلق البعوضة فما فوقها، فالكل خلقه، فبديع حكمته في خلق البعوضة والنملة مثلُ عجيب خلقه في الفيل والجمل، بل إنّ تركيبه للصغير الحقير يلفت النظر أكثر من الكبير، والمؤمن عند سماع هذه الأمثال يعتقد أن هذا المثل صدق لا مِرْيَة فيه من عند الله، بخلاف الكافر الذي يقف حائرًا مترددًا، وكل مثل يُساق يزداد به المؤمن إيمانًا والكافر كفرًا؛ ولهذا تَجِد عند العالم بآيات الله من اليقين والرسوخ؛ لتوارد الأدلة وكثرة البراهين ما لا يوجد عند الجاهل المعرض، وتجد المنحرف الفاجر يزداد فجورًا عند سماع البيّنات والحجج الواضحات.

٢٧ ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

هؤلاء هم الذين ينقضون العهد الذي بينهم وبين ربهم من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ، وكل ميثاق عقدوه على أنفسهم من الإيمان والنذور والمعاهدات؛ لأنهم فَجَرَةٌ، وكل ما أمر الله به أن يوصل من بر الوالدين، وصلة الرحم، وحق الجار، قطعه هؤلاء العصاة المردة، فلا مع الخالق صدقوا، ولا مع الخلق وفَّوا، ثم هم يسعون في الأرض فسادًا من إشعال الفتن، ونشر الفرقة، واختلاف الكلمة، والتربص بالمؤمنين، وحبك المؤامرة على المسلمين، فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وحياتهم وسعادتهم، فلا أشد منهم هلاكًا، ولا أغبن منهم صفقة، فالخسارة المالية تعوض، ولكن خسارة الدين والقيم لا عوض منها؛ لأن خسارة هؤلاء المكذبين خسارة دائمة في الدارين، فلعظم خسارتهم حصر الخسارة فيهم. ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف تجحدون ألوهية ربكم وقد كنتم في عالم العدم فأوجدكم في الحياة بعد الفناء، ثم هو بعد هذه الحياة يميتكم ثم يخرجكم من قبوركم للحساب، أفلا يستحق من هذا وصفه - جل في علاه - أن يُعبد ويُوحّد؛ لأنه لا خالق ولا محيي ولا مميت إلا هو؟ فلماذا لا تفردونه بالعبودية؟ فإن من يملك الإحياء والإماتة والبعث هو وحده الذي تجب عبوديته، لكن عجبًا لكم جحدتم بهذا الحق كله، وكَفَرْتم بهذا الإحسان جميعه، فصيّرتم العبادة لغيره، وأشركتم معه سواه، فأي جرم أعظم من جرمكم؟ أم أي ذنب أكبر من ذنبكم؟.

﴿٢٩﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

فالله - سبحانه - الذي يستحق العبادة، وهو الذي أوجد لكم كل ما في الأرض من غذاء وماء وهواء ودواء وضياء، وجعل الأصل فيما خلق لكم الحل والطهارة، وبعدما خلق لكم ما في الأرض من نِعَمٍ، قصد إلى السماء فأبدعهن وحسّن خلقهن، وأحكم صناعتهن، وجعلها سبع سموات، ومع هذا الخلق والإبداع فعلمه - سبحانه - محيط شامل، فله - سبحانه - كمال الخلق، وتمام العلم، فمن كان هذا وصفه من القدرة على الخلق وكمال العلم مستحق أن يُعبد وحده، وأن يُشكر بامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبرنا الله أنه أخبر ملائكته أنه سوف يجعل في الأرض من يَعْمُرها ويحييها بالإيمان، وهم آدم وذريته، وبعضهم يخلف بعضًا؛ ليبقى العمار والنماء والحياة، وتتم سنة الابتلاء وحكمة الخليقة، فقالت الملائكة: أتجعل في الأرض خليفة يفسد فيها بالعصيان والظلم والفتنة ويسفك الدماء المعصومة بغير حق. لأن الملائكة سالمون من الذنوب والخطايا، منزهون عن الظلم والعدوان، عندها أخبرهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون من سر الخلق وعواقب الأمور وبديع الحكم التي لا يطلع عليها إلا الله من إقامة الدين والدعوة إلى الله ووجود الأنبياء والعلماء والأولياء والعباد والزهاد ومَنْ يَصْلُحُ لِعِمَارة الأرض.

﴿٣١﴾ ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

علَّم الله آدم أسماء المسميات من المخلوقات من سماء وأرض، وجبل وشجر ونحوها؛ ليتميز عليهم بالعلم الذي هو فوق كل شرف، وأجَلُّه ما كان من الله - عز وجل - كعلم آدم وعموم العلم الشرعي، وبعدما علم آدم الأسماء عرض المسمّيات على الملائكة ليكون التفضيل بعد الامتحان، ويكون التكريم بعد الابتلاء، وقال للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات إن كنتم صادقين بأنكم أهل فضيلة وميزة على آدم وذريته.

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

قالت الملائكة لما أمرهم سبحانه بذكر أسماء المسميات: يا ربنا تبارك اسمك وتقدّس نحن لا نستطيع ذكر هذه الأسماء إلا إذا علَّمتنا أنت؛ لأن علمك واسع محيط، وأنت مع العلم حكيم، فعلمك وحكمتك من أجلِّ صفاتك، وهذا يدلك على أن العالم الحكيم هو الرباني بحق، فمن فاتته الصفتان أو إحداهما فاتته الإمامة في الدين، وانظر كيف حصروا العلم والحكمة لله وحده؛ لأنه الأعلم الأحكم تقدس اسمه.

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

فلما عجز الملائكة عن معرفة الأسماء أمر الله آدم بعدما علّمه أن يذكر الأسماء أمام الملائكة؛ ليظهر فضله ويُبَيِّن شرفه وليأخذ الاصطفاء باستحقاق، فأخذ آدم يذكر أسماء المسمّيات أمام الملائكة، حينها قال الله للملائكة: أما

أخبرتكم أنني العالم بكل ما في السموات والأرض وأعلم ما تبدون من أعمال وأقوال وما تكتمون من عقائد وأسرار، وهذا يدلك على فضل العلم؛ لأنه الصفة الوحيدة التي فاق بها آدم على الملائكة، ثم إن الله مدح نفسه بالعلم، ثم إن الملائكة اعترفوا بالفضل لآدم؛ لأنهم أدركوا شرفه عليهم بما علّمه الله، فمن أراد العلو والرفعة فعليه بطلب العلم النافع الذي أنزله الله على رسله، فهو الذي تحصل به الفضيلة ويرفع به نقص الإنسان وغفلته ويعظم شأنه.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فلما ظهر للملائكة فضل آدم عليهم بالعلم أمرهم - سبحانه - بالسجود إكرامًا له لما ميّزه الله عليهم بعلم الأسماء؛ لأنه لا يوجد أفضل من صفة العلم، فامتثلوا أمر ربهم وسجدوا له؛ لأنه يجب على المفضول احترام الفاضل اعترافًا وإكرامًا، ولكن إبليس لكبره وشقاقه امتنع عن السجود، وضرب الأمثال كبرًا وعتوًا، فأذله الله وأخزاه وطرده ولعنه، وهذا شأن أتباعه من أهل الكبر لا يذعنون للحق، فمرض الشبهة أعظم من داء الشهوة، فالأول مرض إبليس؛ ولذلك طُرد، والثاني أصاب آدم لما أكل من الشجرة، لكنه تاب فتاب الله عليه، فالواجب على العبد المبادرة عند الأمر وترك التسويف والاعتراض، وهذا السجود لآدم سجود تحية وتعظيم، لا سجود عبادة الذي لا يصح إلا لله.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ثم أمر الله آدم أن يسكن الجنة مع زوجه في أمن وأمان وخير ورضوان، في عيش هنيء لا كدح فيه ولا مشقة، بل فيه ألوان من النعيم وصنوف من اللذائذ وأنواع من الثمار، مما تشتهيه الأنفس، ويسر النظر، ويشرح البال، ونهاهم - تعالى - عن أكل نوع من الشجر ابتلاءً منه لهما وامتحانًا ليظهر صبرهما وجهادهما للنفس، وحذرهما من مغبة ارتكاب المنهي، فإن من فعل ذلك بعد البيان فقد ظلم نفسه، وعصى ربه.

﴿٣٦﴾ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

فاجتهد الشيطان في إبعادهما عن الجنة حسدًا لهما، وسوّل لهما ولبّس عليهما فوقعا في فَخِّه المنصوب، وهذه بداية الصراع العالمي بينه وبين عباد الله إلى يوم الدين، فلما ارتكبا المحظور، حُرما من الحبور والسرور، وهذا جزاء من عصى فإنه يُحرم بسبب معصيته من مقامات الأمن والرعاية بحسب معصيته، فيا شؤم المعصية، ويا سوء عاقبتها، ثم أمر الله آدم وحواء والشيطان بالنزول إلى الأرض، وجعل بينهم العداوة الأبدية لتتم سنة الابتلاء والمدافعة والمجاهرة، وجعل الأرض لبني آدم دارًا للعيش والسكنى والتمتع مدة معلومة من الزمن حتى يأذن الله لقيام الساعة ونهاية العالم، فالمستقر سكن ووطن، والمتاع غذاء وماء فلا بقاء للدنيا، ولا لأهلها، وإنما سوف يعودون لإحدى الدارين دار آدم الجنة، ودار إبليس النار.

﴿٣٧﴾ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

من رحمة الله ولطفه بآدم وذريته أن علمه كلمات يستوجب بها الرحمة والغفران، وهي كلمات الاعتراف بالذنب وإعلان التوبة وطلب العفو، وفي هذا فضل الاستغفار، وأن الذنب قد تكون فيه مصالح عظيمة للعبد إذا تاب وأناب من الانكسار والندم والاجتهاد في الطاعة والبكاء والخوف والتواضع لعباد الله.

﴿٣٨﴾ ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ولما أمرهم - سبحانه - بالنزول إلى الأرض من الجنة بَيَّنَ لهم أنه لن يتركهم هملاً، بل سوف يرسل إليهم رسلاً، ويُنْزِل إليهم كتبًا، من آمن بالله واتبع رسله واهتدى بهداه فله الأمن من الله، فلا يخاف مما يستقبله؛ لأن الله حافظه وكافيه ولا يحزن على ما مضى، فالله يغفر له ويتجاوز عنه، والسعادة مبنيَّة على أصلين: - لا خوف، ولا حزن.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما من أعرض عن هدي الله وردّ ما جاءت به رسله، وكتم الحق وكذب به فالنار جزاؤه خالدًا مخلدًا فيها، فانظر كيف بيَّن الله لعباده مصيرهم حتى يكونوا على أهبة وبينة، وتكون الحجة لله عليهم، فلم يأخذهم قبل البلاغ.

﴿٤٠﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾

ثم نادى الله بني إسرائيل وذكَّرهم بأنهم أبناء النبي الكريم يعقوب، فكأنه يقول لهم: أين أنتم من أبيكم الذي كان شاكرًا لربه، عارفًا لحق مولاه، ما لكم أنتم خالفتم أباكم فكفرتم بالله وحاربتم رسله وعصيتم أمره؟!

ثم ذكَّرهم - سبحانه - بنعمه عليهم لعلهم يراجعون أنفسهم، ويستحيون من ربهم، فهل جزاء هذه النعم العصيان وقتل الأنبياء وكتم الحق؟.

وذكَّرهم بعهده عليهم الذي قطعوه على أنفسهم من الإيمان به واتباع رسله، فإذا فعلوا ذلك نصرهم وأعزهم ومكَّن لهم في الدنيا وأكرمهم في الآخرة بجنات النعيم، وأمرهم ألا يخافوا سواه، بل يكون الخوف كله من الله؛ لأنه مالك الضر والنفع، وبيده الثواب والعقاب.

﴿٤١﴾ ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾

واتبعوا هدي النبي الأمي محمد بن عبدالله ﷺ وما جاء به من الوحي؛ لأنه مصدق لما جاء به موسى عليه السلام من التوراة، بل يؤيده ويعضده، فكيف تفرقون بين الرسولين والكتابين، واحذروا أن تكونوا أول المكذبين بهذا النبي فيقتدي بكم غيركم فتكونون أسوة شر، ومفتاح فتنة وصدٍّ عن سبيل الله.

وإياكم أن تشتروا بآياتي التي عندكم عرض الدنيا الزائل فتكتموا الحق وتشهدوا الزور، وتكذبوا مقابل رشوة أو مراباة أو كسب خبيث، فالدنيا كلها ثمن قليل فكيف بجزء منها، وعليكم باتقاء الله وحده بفعل ما أمر واجتناب ما عنه زجر، فلن يحول بينكم وبين عذاب الله إلا تقواه.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

وإياكم يا بني إسرائيل أن تخلطوا الحق بالباطل، فتمزجوا بين الصدق والكذب لتروجوا على الناس باطلكم؛ لأن بعض الفجرة يذكر شيئًا من الحق ليُصدَّقَ في باطله، وإياكم أن تكتموا الحق الذي ظهر وبان بقيام الأدلة والبراهين من نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته وأن دينه حق وشرعه صدق، وأنتم تعلمون أنه رسول من عند الله، فهو مكتوب عندكم بعلاماته وصفاته فكيف تجحدون ما تعلمون.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة التي أمركم الله بها؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ما أُقيمت على الوجه الصحيح، لا مجرد صلاة بلا خشوع وحضور، وأدُّوا زكاة أموالكم لتزكوا بها نفوسكم وتُحطَّ عنكم خطاياكم، ويرضى عنكم ربكم، وتسخو قلوبكم، ويذهب الشح عنكم، وصلوا مع المصلين، واستدل بهذا من أوجب صلاة الجماعة، وقيل: اخضعوا لربكم مثل ما خضع له عباده الصالحون.

﴿٤٤﴾ ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

ما لكم تزكون الناس بكلامكم وأنتم في ظلمة المعاصي واقفون، تأمرون غيركم ولا تأتمرون، وتنهون عن الذنوب ولا تنتهون، ثم عندكم كتاب يُتلى فيه حجج بيّنات، وبراهين واضحات، ومع ذلك لم تستضيئوا بنوره، ولم تهتدوا بهداه، وإذا لم يزجركم العلم أفلا يزجركم العقل! فإن العقل الراجح يدعو إلى الفضائل ويزجر عن الرذائل؛ ويمنع من السفه ولهذا قال: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾

وعليكم بالصبر على أداء المأمور واجتناب المحذور - والصبر قوة من قوى النفس تدخل في كل نظام الحياة وأعمالها -، وداوموا على الصلاة؛ لأنها تعين صاحبها في الأزمات، وتريحه في الكربات، وفي الحديث: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»،

فهي قرة العيون، وبهجة النفوس، وهذه الصلاة كبيرة وشاقة وصعبة إلا على الخاشعين المخبتة قلوبهم وجوارحهم للجبار جل جلاله، ولا يشق عليهم أداؤها في وقت النوم والراحة والبرد والسفر والمرض، وأما المنافق فمن أشق شيء وأصعبه عليه.

﴿٤٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

وهؤلاء المؤمنون الخاشعون الصادقون يتيقنون بالبعث بعد الموت، ولقاء الله للحساب، والرجوع إليه للثواب والعقاب، وهذه مسألة الإيمان باليوم الآخر التي هي من أركان الإيمان العظيمة، وهي التي تحمل صاحبها على تقوى الله؛ لأنه يعلم أنه سوف يلقاه في يوم لا ريب فيه.

﴿٤٧﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يا أبناء النبي الكريم الصالح يعقوب الذين لم تفعلوا فعله في الاستجابة لنا، لماذا لا تذكرون نعمنا عليكم، أما نجيناكم من العذاب؟ أما ظلّلنا عليكم السحاب؟ أما والينا عليكم النعم، وصرفنا عنكم النقم وفضلناكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء منكم، ونزول الكتب فيكم ونصركم على الأعداء مع كثرة أيادينا عليكم، فهلا للنعيم شكرتم وللإحسان ذكرتم؟

﴿٤٨﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يومًا تعرضون فيه على الله، لا تدفع نفس عن نفسها شراً، ولا تجلب لها نفعًا، ولا شفاعة تقبل لكافر، ولا يُفتدى فيه من العذاب بمال، ولا ناصر لمن حق عليه العذاب ينقذه، فلا شافع قبل العذاب، ولا فدية إذا حل، ولا ناصر إذا وقع، فهي أربعة يتعلق بها الكفار في الآخرة لا تنفعهم نفسٌ بدل نفس تفديها، ولا صاحب جاه يشفع لينجيها، ولا ثمن مال من الهلاك يحميها، ولا مدافعٌ صاحب قوةٍ يكفيها.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم يوم نجيناكم وسلَّمْناكم من فرعون وقومه لما هربتم من بطشه، فأدرككم ففلقنا لكم البحر، وخرجتم سالمين من بعد ما كان يذبح كل مولود لكم من الذكور، ويترك كل مولود من الإناث للخدمة في بيوت قوم فرعون، وهذه ابتلاءات واختبارات بالنعم والنقم عظيمة، ولكنكم كفرتم النعم، ونسيتم النقم، وخير ما تَبْكُت به اللئيم تذكيره بما أسديت إليه من نعيم.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل يوم شققنا لكم البحر وقد ضاق عليكم الأمر؛ لأن البحر كان من أمامكم والعدو من خلفكم، وقد أشرفتم على الهلاك فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون، وقد كانوا طالبين لكم، وأنتم مطلوبون، فجعلنا الدائرة عليهم، وأغرقناهم وأنتم تبصرون غرقهم زيادة في التشفي منهم، ولئلا تنكروا هذه النعمة أو لتقوم بها عليكم الحجة.

﴿٥١﴾ ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

واذكروا حين واعدنا موسى قبل أن نكلمه بطور سيناء، وجعلنا له أربعين ليلة قبل هذا الموعد، وكل هذا من أجل هدايتكم وصلاح أموركم، فكفرتم الإحسان، واتخذتم العجل إلهًا يُعبد من دون الله بعد غياب موسى، فأي ظلم أظلم من فعلكم؟! وأي بغي أشد من بغيكم؟ لأنكم صَدَّقتم الدجل، وعبدتم العجل، ورضيتم بالجهل، وشتان بين أمة موسى وأمة محمد ﷺ، فأمة موسى غاب نبيّها أربعين يومًا فجعلوا العجل معبودهم، وأمة محمد ﷺ مات نبيها والخير فيهم إلى يوم القيامة.

٥٢ ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعد هذا الصنيع المشين منكم والفعل السيئ القبيح عفونا عنكم، وسامحناكم وتجاوزنا عن أخطائكم لعلكم ترجعون إلى الجليل وتعترفون بالجميل، وتحفظون هذا الإحسان منا.

٥٣ ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

وتَذَكَّروا يا بني إسرائيل يوم أكرمنا موسى بالتوراة وبيان الحلال والحرام، هدايةً لكم وإرشادًا لعلكم تستقيمون على أمر الله، وتهتدون بهداه.

٥٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

واذكروا حين نهاكم موسى عن عبادة العجل، وأنكر عليكم فعلكم الشنيع الفظيع في عبادتكم لعجل يخور، وتمثال كالثور، وعرض عليكم موسى التوبة إلى الله والعودة إلى دينه؛ لأنه سبحانه هو خالقكم ورازقكم ومبدعكم، لا ربَّ غيره ولا إله سواه، وهذه التوبة تقتضي منكم أن يقتل منكم البريءُ، المجرمَ؛ لأن في هذا تطهيرًا لكم من دنس الذنب وبراءةً للذمة، ودليلاً لصدق التوبة وامتثالاً للأمر، فلما فعلتم تاب الله عليكم من ذلك الذنب العظيم والجرم الأثيم؛ لأنه - سبحانه - يتوب على من تاب، ويرحم من أناب، فلا يأخذ بالذنب بعد التوبة، ولكنه يرحم من استغفر من الحوبة.

٥٥ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

ومن تمردكم وتنكركم والتوائكم طلبتم من موسى أن يريكم الله - جل في علاه - مباشرة لترونه عيانًا بأبصاركم، والله -عز وجل- أعظم وأجل من أن يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الجنة لأوليائه بقوة خاصة يُمدّهم بها، فكيف طلبتم هذا الأمر الجليل، وهو من المستحيل؟ وكفرتم بالتنزيل، ورفضتم الدليل؟ ولكنكم لما سألتم هذا السؤال عاقبناكم بصاعقة من السماء خلعت قلوبكم، وأحرقت أجسامكم وأنتم تشاهدون مصارع بعضكم، فهَلاَّ كان عندكم حياء من تذكر ذاك البلاء؟ وهَلاَّ استفدتم من تلك المشاهد العظيمة في زجر النفوس الأثيمة؟.

٥٦ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعدما أهلكناكم بالصاعقة بعثناكم من جديد، وأعدناكم إلى الحياة لعلكم تراجعون أنفسكم وتوحدون ربكم وتتبعون رسولكم، ولكن ما نفعت فيكم العبر، وما أجدت فيكم العظات؛ لأن النفوس شريرة، والطباع خبيثة، والفِطَر فاسدة، والأخلاق دنسة.

٥٧ ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ومن زيادة النعيم لكم نشرنا السحاب عليكم، يُلَطِّف لكم الجو ويحجب عنكم حرارة الشمس، ويكون مصدرًا للغيث، وتكفلنا بطعامكم من المنِّ الذي هو كالعسل حلاوةً وطلاوة، والسَّلوى وهو لحم طيرٍ لذيذٍ شهيٍ، فالجو لكم قد طاب بتظليل السحاب وتوفير الطعام والشراب، فكلوا من الطيبات واعملوا الصالحات، واشكروا رب الأرض والسموات، ولكن هيهات هيهات لقد قابلوا الإحسان بالإساءة، والجميل بالنكران، فأعرضوا عن الهداية، وركبوا الغواية، فكان ظلمهم على أنفسهم ومغبة ذنوبهم عليهم، فالله لا تضره - سبحانه - معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة الطائع؛ لأنه الغني عما سواه. لا إله إلا الله ولا نعبد سواه، وفي الآية الاكتفاء بالطيبات عن الخبائث، وبالحلال عن الحرام.

٥٨ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وأمرناكم بدخول فلسطين لطلبكم ذلك، وهيأنا لكم فيها معيشة هنيئة بلا مشقة ولا عناء في تحصيلها، بل رزق وافر من طعام لذيذ مع راحة بال وحسن حال، وأمرناكم بدخول باب القرية خاضعين خاشعين شكرًا لله، مستغفرين لذنوبكم، طالبين العفو من ربكم، ووعدناكم بغفران الخطايا إذا تبتم، وتكفير الذنوب إذا استغفرتم، ومن لم يكن منكم مذنبًا زدناه باستغفاره وصلاحه حسنات، ورفعناه درجات، فالمسيء نكفّر سيئاته، والمحسن نزيد في حسناته، فوعدناكم إذا استقمتم بعيش رغيد، ومقام سعيد، وغفران للخطايا، وزيادة في العطايا. وفي الآية وجوب الاستغفار من الذنوب مع تقوى القلوب.

٥٩ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

فغيّر الفجرة منكم ما أمرناهم به من الاستغفار، وقلبوا الكلام فسقًا وعنادًا، فقالوا: حِنْطَة مكان حِطَّة، وما ذاك إلا لكثرة تمردهم على ربهم، وتأصل الخبث في نفوسهم، بعدها أنزلنا عليهم عذابًا من السماء نَكَّل بهم جزاء فعلهم الشنيع وقولهم القبيح، فكم من آية مرت بهم وبلاء، وكم من محنة عاشوها ورخاء، لكن المُخَدَّر بسكار المعصية لا يشعر، والمفتون بحب الدنيا لا يحس، فالذنوب تميت القلوب وتنسيها علام الغيوب، فما أذهب الفطنة وعطّل الفهم ومحق البركة مثل المعصية.

٦٠ ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

فلما أمّنا لكم الطعام مما لذَّ وطاب، بقي الشراب، فلما دعانا موسى أن نسقيكم الماء البارد جعلناه بطريق المعجزة لعلكم تشاهدون قدرة الله فتخافوا، وتنظرون فضله فتشكروه، وتبصرون كرمه فتحبوه، فلا شكر على النعم، ولا خوف من النقم، ولا حب على كثرة الأيادي.

أمَا ضرب موسى بعصاه الصخر مثلما ضرب بها البحر، فانفجر الصخر بالماء، وانفلق البحر للنجاة، فاليابس القاسي بقدرتنا لان، وقلوبكم ما لانت، والسائل بأمرنا تجمّد، فهل من معتبر؟ وفجرنا من الصخر لكم اثنتي عشرة عينًا بعدد قبائلكم؛ ليقل الزحام ولا يقع الخصام، فكل قبيلة تعرف مشربها، فها هو الطعام والشراب مهيأ لكم، وكله من فضل الله فهلاّ شكرتموه وعبدتموه، فلله في كل لقمة نعمة، وفي كل قطرة ماء آلاء، وفي كل نسمة هواء عطاء، وقد حذرناكم مغبة العصيان، وعاقبة الكفران من السعي في الأرض بالظلم، وسفك الدم الحرام، والقطيعة وأخذ أموال الناس بالباطل، وشهادة الزور ونحوها، ولكن تركتم المأمور، وارتكبتم المحذور، وخالفتم الرسول، وجانبتم الحق، وأطعتم الهوى.

٦١ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

وبعدما هيأنا لكم أحسن الطعام من اللحم والحلوى والشراب البارد مللتم ذلك لانعكاس الفطرة وخواء القلوب والتنكر للنعم، ومحبة التبديل والتغيير حتى في الأكل والشرب، اقترحتم على موسى طعامًا آخر وهو أدنى من الأول في الطعم والقيمة من البقل وأنواع الحبوب والخضراوات، فكيف تستبدلون - حتى في الطعام - الأدنى بالأحسن، والرخيص بالغالي، فلا تمييز عندكم ولا فرقان حتى فيما تأكلون؟! ولكننا أعطيناكم طلبكم أيضًا، وأنزلناكم بلدة طيبةً تأكلون من الثمار والحبوب والخضراوات، وجزاءً لعتوّكم والتوائكم وتمردكم جعلنا الهوان عليكم فضربناكم بالخوف في القلوب، والفقر في النفوس، مع خِسَّة الهمم وانحطاط العزيمة؛ لأنكم رضيتم بالدون، وطلبتم الأخس من كل شيء، ورفضتم اختيارنا لكم من العلو والرفعة، وطهارة النفس وسلامة الأخلاق، وصفاء الضمير، وصحة

المنهج، فغضبنا عليكم أشد الغضب؛ لمخالفتكم وفجوركم بعد قيام الحجة، وثبوت الدليل، ووضوح البرهان، فالعالم العاصي مغضوب عليه، والجاهل العاصي ضال، وسبب غضب الله على اليهود كفرهم بالرسالة ورفضهم الإيمان، وقتلهم للأنبياء، وهي جرائم بشعة فظيعة، وخطايا هائلة مرعبة، وهذا الهوان الذي حل بهم والذل الذي لزمهم والغضب الذي وقع عليهم بسبب عصيانهم في ترك المأمور، وعدوانهم بارتكاب المحظور، ويمكن أن يكون العصيان ظلم النفس، والعدوان ظلم الناس.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

هذه الآية في أهل الكتاب قبل رسالة محمد ﷺ، ومعناها أن من آمن من هذه الطوائف من اليهود والنصارى والصابئة (هم الذين بقوا على فطرتهم بلا دين معلوم عنهم، وقيل فرقة من النصارى)، وعمل صالحًا فهم مأجورون عند الله لا يخافون مما أمامهم من الأهوال، ولا يحزنون مما خلفهم من آثار الأعمال، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يصح إيمان مؤمن حتى يؤمن به ﷺ، وهذه الآية فيها احتراز واستثناء؛ لأنه لما ذم بني إسرائيل أخبر أن فيهم مؤمنين، ثم ذكر النصارى والصابئين ليكون الحكم عامًا والقاعدة مطردة في كل من آمن وعمل صالحًا، وبيّن أن أجرهم عند ربهم، وهي الجنات، ولا يلحقهم خوف من عقاب من العقوبات، ولا ينالهم حزن على فوات ثواب؛ لأنه لا أمن لخائف ولا راحة لمحزون، وفي الآية اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وإلا صار مجرد دعوى لا يوصل لفوز، ولا ينجي من هلاك.

﴿٦٣﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل أخذنا عليكم العهد الثقيل بطاعتنا واتباع رسولنا، وأكدنا ذلك برفع جبل الطور فأصبح كالسحابة فوق رؤوسكم حتى تخافوا وترهبوا، وأمرنا بالجد والاجتهاد في أخذ التوراة والصبر على تعاليمها والعمل بأوامرها واجتناب نواهيها، مع تدارس هذا الكتاب وتذكره وتدبره ودوام تلاوته؛ ليبقى حاضرًا معكم؛ لأن الإهمال طريق النسيان؛ ولأن في لزوم قراءته ما يدعو لتقوى الله بما يحب واجتناب ما يكره، وهذا هو المقصود من المدارسة للكتاب لا مجرد التلاوة بلا عمل.

فالقوة في أخذ الكتاب تقتضي حسن التلقي، وصحة العمل، فلا كسل في الأخذ، ولا وهن في التنفيذ.

﴿٦٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

وبعد هذه الآيات والحجج البيّنات أعرضتم عن الهداية واخترتم الغواية، فلولا أن الله تفضّل عليكم بالإمهال والتوبة ولم يعاجلكم بالعقوبة لحل بكم الهلاك، فلا ناصر يدفع، ولا وليًا يشفع، وفضل الله يشمل الإحسان للمحسن، ورحمته تعم التجاوز عن المسيء.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾

ولقد عرفتم قصة سكان قرية إيلات الساحلية الذين خالفوا حرمة يوم السبت، فصادوا فيه فعاقبناهم بتغيير صورهم إلى قرود ذليلة قبيحة حقيرة، فمن بدّل النص والسورة عُوقب بتبديل الشكل والصورة، كما في الحديث: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوِّل الله صورته صورة حمار**». والجامع بينهم وبين القرود الهوان والذلة وقبح الصورة.

﴿٦٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

فجعلنا هذه العقوبة التي حلّت بهم عظة وعبرة لمن شاهدها، وسمع بها في عصرهم، ولمن نقلت إليهم ممن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة؛ ليرتدع العاصي، ويحذر المتقي، وتقوم الحجة، وتظهر نقمة العظيم بأعدائه، والسعيد من

وعُظ بغيره، ومصائب قومٍ عند قوم فوائد، وذكرت هذه الآيات لهذه الأمة لتأخذ الحيطة والحذر من مخالفة أمر الملك الحق، ولكن لا ينتفع بهذه الآيات إلا المتقي؛ لتمام بصيرته وكمال إيمانه وحسن تدبره.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

واذكروا حين قال لكم موسى إذ قتلتم قتيلاً منكم ثم اختلفتم فيمن قتله، وكادت تقع بينكم فتنة، فأمركم بذبح بقرة وأخذ عضو من أعضائها وضرب المقتول به ليخبر من قتله، لكنكم ما بادرتم لامتثال أمر موسى بل تلكأتم وترددتم وتشددتم في السؤال فشدد الله عليكم في أوصاف البقرة، ولو أنكم بادرتم إلى أيَّة بقرة فذبحتموها لاستقام الحال وحصل الامتثال.

فلما أمرهم موسى بذبح البقرة ظنّوها سخرية منه، فقالوا: نسألك عن القاتل، فتقول: اذبحوا بقرة؟! ومعاذ الله أن يهزل رسول الله في أوامر الله، فكلام الرسل جدٌّ ليس بالهزل، بل حق وصدق وفصل، ولهذا تعوَّذ موسى من الجهل الذي منه الاستهزاء بالناس، والسخرية بعباد الله، والتكلم بكلام لا فائدة فيه، واللعب بأمر الله، والمزاح في شرعه سبحانه.

فمن مزح بالحق فقد جهل، ومن استهزأ بالناس فقد خسر.

﴿٦٨﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

فلما علموا صدق موسى أخذوا يطلبون أوصاف البقرة تعجيزًا وتردّدًا، فقالوا: يا موسى، اسأل ربك يخبرنا ما سنُّها؟! أكبيرة هي أم صغيرة؟ فقال موسى: ربي يقول: إنها وسط ليست بالفارض وهي الكبيرة، ولا بالبكر وهي الصغيرة، بل هي بينهما، وذلك الأقوى والأحسن والأكمل نموًا، فهيا بادروا إلى الأمر واتركوا التشدد والتعنت. [فمن سأل عما سُكت عنه ساءه ما صدر منه].

﴿٦٩﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

فلما سألوا عن السن وأجيبوا، سألوا عن اللون، فقال لهم موسى: إن ربي يقول: إنها صفراء شديدة الصُّفْرة، وهي أحسن ألوان الدواب التي تبهج العين حسنًا وتسر النفس مشاهدةً.

﴿٧٠﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

وما زال اللبس عندهم بعد هذا البيان، فقالوا: ادع لنا يا موسى ربك يبين لنا شأن هذه البقرة وإنَّا بعد ذلك لمهتدون بمشيئة الله، ولو لم يقولوا: إن شاء الله ما اهتدوا.

﴿٧١﴾ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

فقال لهم موسى إنها ليست مذللة للعمل، ولا مسخرة للخدمة، ولا يُحرث عليها، ولا يُسقى عليها، سالمة من العيوب كالعرج والعور والمرض، أو سالمة من العمل، ولونها لون واحد لا لون فيها غير الصفرة، وبعد هذا التشدد منهم شدد الله عليهم، فقالوا لموسى بعد هذه الأوصاف: عرفنا البقرة الموصوفة، فذبحوها بعد عنت ومشقة.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وقد قتل أناس منكم نفسًا معصومة، واختلفتم فيمن قتلها والقاتل جاحد والشاهد كاتم، فجعل الله علامة بينت الحق، وهي أن الله أمركم بذبح البقرة، ثم أخذ عضو منها وضرب المقتول به، فأحياه الله وأخبر بمن قتله، فأخرج الله البينة التي أخفاها القاتل وكتمها الشاهد.

﴿٧٣﴾ ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فلما أمرناكم بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة أحيينا المقتول بإذن الله ليتحدث بنفسه ويخبر عمن قتله، وتكون لكم آية على قدرة - الله تعالى - في الإحياء لعلكم تراجعون عقولكم؛ لأنكم بعد هذه الآيات والحجة ضللتم في المحجة.

﴿٧٤﴾ ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وبعد هذه الآيات غلظت قلوبكم، ومردت على الكفر، فلم تؤثر فيكم موعظة، ولم تنفعكم نصيحة، ولم يجدِ فيكم هدى من بعد ما أظهرنا لكم البينات والآيات الباهرات، فقلوبكم في قسوتها كالحجارة بل أشد، لأن الحجر ينفجر منه النهر، وقلوبكم لا تنفجر بخير ولا تقوى، ومن الحجر ما يتشقق بالماء، وقلوبكم لا تتشقق للهدى الذي نزل من السماء، ومن الحجر ما يسقط من خشية الله، وقلوبكم لا تتفطر من خوف الله، فيالها من قلوب رانت عليها المعصية فغلظت، وكثر عليها الذنب فقست، ولكن الله ليس بغافل عما فعلتموه من التكذيب والتحريف والتبديل، بل هو عالم بذلك حافظ له وسيجازيكم بأعمالكم.

﴿٧٥﴾ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ما كان لكم - أيها المؤمنون - أن تطمعوا في إيمان اليهود، وقد حرفوا كتابهم الذي فيه هدايتهم وشرفهم وبدّلوه، فكيف تريدون أن يُصَدِّقوا بكتابكم، ويتبعوا رسولكم؟ هذا بعيد جدًّا على هذه الأمة البائرة الحائرة، فما دام أنهم سمعوا كلام الله الذي جاء به موسى ثم حرّفوه من بعد ما ثبت عندهم أنه من الله، وعلموا علم اليقين أنه وحي إذًا فلا تطمعوا في إيمانهم بما عندكم وقد كفروا بما عندهم، فلو أرادوا الإيمان لآمنوا بموسى قبل محمد، والتوراة قبل القرآن.

﴿٧٦﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

هؤلاء اليهود منهم من إذا لقي المؤمنين قالوا: آمنا، بألسنتهم فحسب وقلوبهم كافرة، ولكن إذا رجع بعضهم إلى بعض وانفردوا عن المؤمنين قال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإيمان بما عندهم، وتشهدوا أن دينهم حق ودينا باطل، فيجعلوا ذلك حجة علينا عند الله يوم القيامة فيكونوا شهداء بضلالنا ونكون شهداء بإيمانهم، أفلا تعقلون خطورة ما تفعلون. فلا تحدثوهم بما عندنا من الآيات التي تظهر صدق محمد ﷺ فيجعلوها حجة منا علينا عندالله، بل اكتموا ما عندنا ولا تؤمنوا بما عندهم.

﴿٧٧﴾ ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

كيف لا يعلم هؤلاء العصاة العتاة من بني إسرائيل أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، فيخافونه ويخشونه، فهم يظهرون للمؤمنين غير ما يبطنون خوفًا ومداراة، والله أولى أن يخاف، وأجدر أن يخشى؛ لأنه يعلم السر وأخفى، لكن المراقبة إذا ارتحلت من القلب فسد، والعمل إذا خلا من الصدق كسد.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

ومن أهل الكتاب عوام مقلدون، مبلغ علمهم من التوراة التلاوة فقط، بلا فقه ولا تدبر ولا فهم، فعلماؤهم فاسدون، وعوامهم مقلدون، وهؤلاء العوام ليس عندهم يقين، وإنما هي شكوك وأوهام بلا رسوخ ولا عمق، فلا خير في علم بلا فهم، ولا في قراءة بلا تدبر، ولا في عبادة بلا فقه، وإنما حصل الفساد من الغواية والتقليد.

٧٩ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

فالخسارة والهلاك على من كتب وحرّف كتاب الله بيده، ثم ادعى كذبًا وزورًا أنه كلام الله ليحصل على شيء من الدنيا الفانية الزائلة، كيف والدنيا بأسرها من أولها إلى آخرها ثمنٌ قليل بخس رخيص تافه، والهلاك عليهم من جهتين، من جهة التحريف للكتاب، ومن جهة أكل أموال الناس بالباطل، فهم حرفوا الكلام، وأكلوا الحرام، فالعلم فاسد، والمطعم خبيث، فقوت الروح مقت، وقوت الجسم سحت.

٨٠ ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وقالت اليهود: إن الله لن يعذبنا في نار جهنم إلا أياما معدودة كذبًا منهم وزورًا، فرد عليهم الله بأن هذه الدعوى لها احتمالان: إما أن لهم عهدًا بينهم وبين الله من الإيمان به ورسوله والعمل بكتابه وهذا ليس موجودًا، وإما أنهم يقولون كلامًا لا حقيقة له، وهذا الواقع والحال، فهم كاذبون فيما قالوا، آثمون فيما فعلوا؛ لأنهم نقضوا العهود، وأخلفوا الوعود، وكفروا بالمعبود، فاستحقوا الخلود في النار ذات الوقود.

٨١ ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

والحق أن من كسب ذنبًا أحاط به، وهو الشرك بالله؛ لأن ما سواه قد يغفره الله، لكن هذا الشرك إذا أتى به صاحبه فقد حبط عمله، وضل سعيه، وحق عليه العذاب، فهذا خالد مخلد في النار، وهذا عام لكل الطوائف، شامل لكل الأمم، ولو كان العبد له خطايا غير الشرك لم تحط به خطيئته، فلا حجة لخارجي مكفّر في الآية ولا لمعتزلي متذبذب بل فيها الرد عليهم.

٨٢ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

ثم ذكر حكمًا عامًا في النجاة، وهو أن من آمن بالله واتبع رسله وعمل صالحًا مع الإخلاص والمتابعة فهو ناجٍ من النار، خالد في جنات النعيم، فبين في هاتين الآيتين أهل الهلاك وأهل النجاة، فالإيمان والصلاح طريق الفلاح.

٨٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

قد أخذنا الأيمان الغليظة على بني إسرائيل مع العهود الموثقة على أن يعبدوا الله وحده لا يشركوا به شيئًا، مع بر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى اليتيم والمسكين، وحسن معاملة الناس، وإقامة الصلاة في وقتها بحدودها، ودفع زكاة المال لمن يستحقها، وهذه أصول العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وهي متفق عليها بين الديانات السماوية، ولكن مع أخذنا المواثيق الصارمة والأيمان الجازمة عليكم، ومع حسن ما أمرناكم به، وقبح ما نهيناكم عنه أعرضتم وبدلتم وحرّفتم، فتركتم الأوامر، وارتكبتم المناهي ظلمًا وبغيًا، ولكن فئة منكم لم تفعل فعلكم بل آمنت وصدّقت واتبعت، وأما أكثركم فهو معرض مكذب، لم يحسن عبادة الخالق، ولم يحسن معاملة المخلوق، فياخسارة بني إسرائيل ومن شابههم، كم من عهد نقضوه، وواجب تركوه، ومحرم ارتكبوه، وعلم نسوه.

٨٤ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

واذكروا يوم أخذنا عليكم المواثيق الغليظة، والعهود الملزمة ألاَّ يقتلَ بعضكم بعضًا بلا حق، ولا يخرج بعضكم بعضًا من وطنه بلا حق؛ لأن قتل النفس والإخراج من الوطن قرينان، فذاك بقاء النفس وهذا دوام الأنس، فأين هذه العهود التي أقررتم بها وشهدتم على الوفاء بها، وعلمتم أنها حق من عند الله ثم نقضتموها بالقتل والطرد؟.

﴿٨٥﴾ ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فأنتم الآن في المدينة تقتل كل قبيلة منكم الأخرى، فبنو النضير تقاتل بني قريظة، وكذلك بنو قينقاع، وبعضكم يخرج بعضًا ويُجْلِيه عن بلده ويطرده من داره، وهذا محرم في شرعكم، وأنتم تتعاونون على هذه الأفعال المحرمة، وتتحالفون مع غيركم كالأوس والخزرج من العرب على قتل إخوانكم من اليهود وإخراجهم، فأنتم على إثم في ترك الأمر، وعلى عدوان من فعل المنهي عنه، ثم إذا انتهت الحرب فديتم أسراكم فتخرجونهم ثم تفادونهم، والإخراج محرم، والفداء واجب عليكم، فأنتم كَفَرْتُم ببعض الكتاب من تحريم القتل والإخراج، وآمنتم بالفداء، فلماذا تفرقون شريعة الله؟ فما أعجبكم آمنتم به، وما شق عليكم كفرتم به!! فعقوبة من يفرق الكتاب أن يخزيه الله، وهذا ما وقع لليهود في عهده ﷺ، فإنه نكّل بهم وقتل بعضهم، وأخرج بعضهم جزاء وفاقًا؛ لنقضهم العهد والميثاق، فصاروا بعد هذا في ذُلٍّ وهوان وهلاك وخسران، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فعذاب دائم أليم في نار جهنم، وهذا جزاء من أعرض عن الهُدى ضنك وعار في الدنيا، وعقوبة وعذاب في الآخرة. أما المؤمن فسعادة ونصر وعزة في الدنيا، ونعيم ونجاة وخلود في الآخرة، ثم أخبر - سبحانه - أنه ليس بغافل عن أعمال اليهود وما يفعلونه من دسائس ومكر ومعاصٍ، بل هو مطلع عالم يحصيها لهم ثم يوفيهم إياها.

﴿٨٦﴾ ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة اختاروا عرض الدنيا الزائل على نعيم الآخرة الدائم، فتعاونوا على الإثم والعدوان خوف العار في نظرهم، فلسان حالهم يقول: النار ولا العار، فلما أغضبوا الجبار أوقع بهم العار، وأعد لهم النار، فهم يقدمون الحاضر الرخيص على الغائب النفيس دائمًا، ففي الآخرة لن يخفف الله عليهم عذاب جهنم، وليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب، فلا عمل صالح ينفع، ولا ناصر يدفع، ولا ولي يشفع، فلا يرحمهم الله، ولا يقبل قول من يرحمهم.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

وأخبر - سبحانه - أنه أنزل على موسى التوراة؛ هدايةً لبني إسرائيل، ثم تابع الرسل عليهم مبشرين ومنذرين من أجل هدايتهم، ومنهم عيسى الذي أنزل الله عليه الإنجيل وأيده بجبريل، لكن اليهود لما قَدَّمُوا الهَوى على الهدى حاربوا أنبياء الله واستكبروا على أمر الله، وجحدوا بآيات الله، فكذبوا بعض الأنبياء، وآذوهم وقتلوا بعض الأنبياء، فهم بين تكذيب وتقتيل، فكان جزاؤهم التنكيل والتعذيب.

﴿٨٨﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

هؤلاء اليهود اعتذروا عن الإيمان بالرسول النبي الأمي فقالوا: قلوبنا مغطّاة بأغشية لا تفهم ما تقول، فسامحنا فلن نستطيع اتباعك، فليس عندنا استعداد لسماع ما بُعثت به؛ لأننا لا نفقه ما تقول، وأخبر - سبحانه - أن هذا عذر كاذب، بل السبب أن الله كتب عليهم اللعنة فأصبحوا مطرودين من الرحمة والخير والهدى، فلما كتب عليهم الشقاوة وحرمهم الهداية لارتكابهم الغواية أصبحوا لا يريدون الرشد الذي بُعث به ﷺ؛ لأن الملعون مغبون، وما استحقوا اللعنة إلا بكفرهم بالله واستهزائهم برسله وكتبه، فالمؤمن فيهم قليل، وغالبهم كافر جاحد.

٨٩ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ولما جاء اليهودَ كتابُ القرآن المنزل على محمد ﷺ وهو يصدق ما جاء في التوراة الذي نزل على موسى ويتفق معها، وكان في كتابهم ما يخبر برسالة محمد ﷺ وأوصافه، وكانوا هم قبل رسالته - عليه الصلاة والسلام - إذا حاربوا مشركي العرب استنصروا وافتخروا به وتوعدوا بخروجه، وأنهم سوف يقاتلون معه، لكنهم بعد ما بعث كفروا به، فلعنة الله على أمثالهم من الكافرين.

٩٠ ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

بئس ما استعاضوا واستبدلوا، فهم اختاروا الكفر على الإيمان، والتكذيب على التصديق، والهلاك على النجاة؛ لأن الحسد والبغي حملهم على المكابرة والتكذيب، فرفضوا متابعة النبي العربي عنادًا وحسدًا؛ لكونه ليس من اليهود مع أنهم كفروا بما أُنزل على موسى، فلا برسولهم صَدَّقوا ولا بمحمد آمنوا، مع العلم أن الاختيار في إرسال الرسل لله وحده يختار من يشاء من عباده من العرب واليهود وغيرهم، فالخلق خلقه والأمر أمره، فكان جزاؤهم غضبًا من الله على تكذيبهم محمد ﷺ على غضب سابق؛ لتكذيبهم موسى، ولهم ولكل كافر عذاب مؤلم موجع في هون وخسران؛ لأنهم أغضبوا الرحمن واتبعوا الشيطان.

٩١ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وإذا قيل لليهود آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ، قالوا: نحن لا نؤمن إلا بما نزل علينا نحن اليهود، أما ما أُنْزل على غيرنا فلا سمع ولا طاعة، فردّ عليهم - سبحانه - بأن ما نزل على محمد حق وصِدْقٌ من عند الله الذي أنزل الكتاب، فهو حجة لهم لو آمنوا به على صحة ما في كتابهم من الحق، فكيف يكفرون بما يتفق مع رسالتهم؟!!! فتكذيب القرآن تكذيب للتوراة؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، لكنه حمق اليهود وسفههم وبغيهم وحسدهم، ثم إن كنتم صادقين أيها اليهود في أنكم لن تؤمنوا إلا بِرُسُلِكُم فلمَ قتلتموهم؟ فهل قَتَلَةُ الأنبياء يؤمنون بهم؟ فكيف تؤمنون بالنبي العربي الأمي وأنبياؤكم من اليهود قتلتموهم وكذبتموهم؟!!

٩٢ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد جاءكم موسى بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة؛ وبعد ظهور البيان ووضوح البرهان على وحدانية الرحمن عبدتم العجل من دون الله، فمن أظلم منكم؟! ومن رفض الحجة، وعق الدليل، وكابر الحق فهو ظالم، وأنتم عبدتم غير الله مع وجود موسى نبي الله، فمن كفر بالحق وجحد، وكذّب بالآيات وألحد، كيف يتبع النبي محمدًا ﷺ؟!

٩٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

واذكروا حين أخذنا منكم المواثيق الغليظة، والعهود القاطعة على الإيمان بنا، وجعلنا جبل الطور فوق رؤوسكم كأنه سحابة ليكون دليلاً على قدرتنا لعلكم تخافون وتؤمنون، وأمرناكم بأخذ الرسالة بحزم، والعمل بجد واجتهاد لا باستهزاء وسخرية وكسل، واسمعوا سماع استجابة وطاعة وقبول، لكن كان جوابكم أسوأ جواب؛ فقلتم سمعنا بالآذان، وكذبنا بالجنان والأركان، فقامت عليكم الحجة بعد وضوح المحجة؛ لأن قلوبكم شُغِفَت بحب عبادة العجل، فمن لا يعبد الله عبد غيره، ومن لا يحبه أحبَّ سواه، فسحقًا لكم كفرتم بعبادة العزيز الغفور، وعبدتم الثور، فإذا

كان هذا هو الإيمان الذي تقصدونه فقُبْحًا له من إيمان، وخسارة لكم به، فهل المؤمن الصادق يفعل هذه الأفاعيل من التكذيب والدجل والتزوير والجهل وعبادة العجل؟!

فلو كان إيمانكم حقًا، ودينكم صدقًا كنتم اتبعتم المرسلين، وعبدتم رب العالمين؛ فدل على أنكم كفرة فجرة، قتلة جهلة.

٩٤ ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قل لهؤلاء اليهود إن كنتم تعتقدون أن الجنة لكم وحدكم كما زعمتم أنه لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهيَّا اطلبوا الموت حتى تدخلوا جنتكم الموعودة إن كنتم صادقين أن الجنة لكم؛ لأن من وُعِدَ محبوبًا مرغوبًا جَدَّ في طلبه.

٩٥ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وهؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت؛ لخوفهم من سوء مصيرهم، فهم لو كانوا صادقين أن الجنة لهم لتمنوا الموت، ولكنهم كاذبون، فأعمالهم القبيحة تمنعهم من طلب الموت، والله - سبحانه - مطلع على أفعال الظالمين ليوفيهم إياها.

٩٦ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

لكنهم كاذبون، فهم أشد الناس حبًا وتعلقًا بالبقاء في الحياة الدنيا حتى إنهم أكثر طمعًا فيها من المشركين عبدة الأصنام، يريد أحدهم أن يعيش في هذه الدنيا ألف سنة من شدة حبه للبقاء، فهو يتعلق بالمحال لسوء الحال، وقبح الأعمال، ولو على فرض أنه عُمِّرَ ألف سنة فسوف يعود إلى ربه فيعاقبه على سوء صنيعه وقبيح فعله؛ لأن الله مطلع على أعمالهم، عالم بها، محصيها عليهم.

٩٧ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

واليهود يقولون إن عدوّنا من الملائكة جبريل؛ لأنه ينزل بالدمار والخسف، فقيل لهم: بل جبريل نزل بالحق على محمد الذي يصدِّق الحق الذي نُزِّل على موسى، وهو لا ينزل إلا بأمر الله، فنزوله سبب لكل خير من إرشاد العباد وهداية البشر والتبشير لمن آمن برحمة الله ورضوانه وجنته، فأيُّ خطأٍ لجبريل حتى عادوه؟! لكنه البغي والعدوان منكم.

٩٨ ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهؤلاء لما عَادَوا جبريل وما نزل به من الحق من عند الله عَادَوا الله، وعَادَوا ملائكته ورسله، فاستحقوا عَدَاء الله، ومن كان الله عَدُوَّه محقه وأخزاه وأذلّه، فالله عدو لكل كافر، يشتت أمره ويقصم ظهره.

٩٩ ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

ولقد أنزلنا إليك - يا محمد - آيات القرآن البيِّنة الواضحة التي تحمل الرشد والهدى، وتنهى عن الغي والردى، وما يكذب بها بعد هذا البيان إلا من خرج عن طاعة الله واستوجب غضب الله، وتمرد على أمره.

١٠٠ ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فما لهؤلاء اليهود كلما عقدوا عقدًا، أو عاهدوا عهدًا مع الله ومع خلقه قام فريق منهم بنقض هذا العقد، ونكث هذا العهد، ففريق منهم يغدرون، وأكثرهم لا يؤمنون، فمن لا يؤمن بالمعبود لا يحترم العهود، ولو كانوا صادقين في إيمانهم لما نقضوا عهودهم، فمع الخالق كفروا، ومع الخلق غدروا.

﴿١٠١﴾ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولما جاء اليهودَ هذا الرسولُ النبيُّ الأميّ الكريمُ بهذا الكتاب العظيم الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو مصدق لما نُزِّل على موسى من التوراة طرح فريق منهم كتابهم وأعرضوا عنه؛ لأنهم لما كَذَّبوا ما نُزِّل على محمد فقد كذبوا ما عندهم؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، فلشدة إعراضهم كأنهم رموا الكتاب خلف ظهورهم استخفافًا به وإهانة له وعدم احتفاء واحتفال به، وفعلهم هذا فعل من لا يعلم أنه من عند الله، بل هو فعل جاهل سفيه.

﴿١٠٢﴾ ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

فلما طرحوا كتاب الله وأعرضوا عنه ابتلاهم الله بما اعتادوه من الباطل كالسحر ونحوه، فتركوا الحق المبين، وذهبوا يتبعون الإفك المهين، فصاروا يتبعون ما نسبته الشياطين إلى سليمان من سحر وكهانة، وهو - عليه السلام - بريء من ذلك، بل هو نبي معصوم، ورسول كريم لم يكفر بربه بسحر أو غيره، وإنما الذين كفروا هم الشياطين.

فاليهود اتبعوا سحر الشياطين وتركوا اتباع المرسلين، واتبعوا أيضًا السحر الذي يعلِّمه هاروت وماروت في أرض بابل في العراق مع العلم أنهما ينصحان من علَّماه بخطورة السحر ويحذرانه من الاغترار به، فالشياطين يعلِّمون السحر للإضلال، والملكان يعلمانه بعد النصح والتحذير والإخبار أنه من أقبح الأعمال، فاليهود يتعلمون السحر، ويهجرون الذكر، ويتعلمون من السحر أسوأه وأقبحه، وهو التفريق بين الرجل وامرأته، ويسمى الصرف؛ لأن العلاقة بين الزوجين علاقة مودة ورحمة، ومع هذه العلاقة القوية فإن السحر يؤثر - بإذن الله - فيها وله حقيقة، فلقوَّة تأثيره يفرق بين الزوجين.

وقد علم اليهود أن من رغب في السحر واشتراه وباع إيمانه بالله أنه ليس له عند الله نصيب من الرحمة والثواب، بل له أعظم النكال وأشد العذاب، ويا خسارة وحقارة ما استعاضوا به من تركهم الإيمان واتباع الرسل وتعلقهم بالسحر والدجل، لكن ليس عندهم علم نافع يحملهم على تمييز الصالح من الطالح والنافع من الضار.

﴿١٠٣﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

ولو أن اليهود آمنوا بالله واتبعوا رسله واتقوا عذابه؛ لكان ثواب الله ونعيمه خيرًا لهم من هذا العرض الزائل الذي يحصل لهم من السحر؛ لأن الإيمان يحث على فعل الطاعات، والتقوى تنهى صاحبها عن المخالفات، ولكن علمهم علم فاسد ما دلهم على الرشد ولا ردهم عن الغي؛ لأن العلم النافع إذا تمكن من القلب أورث الخشية، وأثمر الإنابة، وأنتج الاستجابة، لكن علمهم علم لسان وجاه لا قلب ونجاة.

﴿١٠٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

كان الصحابة يقولون للرسول ﷺ: راعنا أي راعِ أحوالنا، فأخذها اليهود وقصدوا بها راعنا من الرعونة والحمق، فنهى الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة ليقطع الطريق على اليهود، وليرفع اللبس، ولا يكون هناك مدخل لليهود، فعليهم أن يقولوا: انظرنا لأنها أسلم وأحسن وأبعد عن سوء الاستعمال، فعلى العبد أن يبتعد عن الشبهات والألفاظ المحتملات، وعليه بالجلي الواضح الحسن الذي لا مدخل فيه من أي ظن أو احتمال يحصل به التدليس والتلبيس، على حديث: «**دع ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُكَ**».

وعليكم بسماع كل نافع مفيد من الكتاب والسنة وعموم العلم النافع، السماع المقرون بالقبول والاستجابة.

أما الكافرون فلهم عند الله عذابٌ أليم موجع لسوء أفعالهم وقبح أقوالهم وشناعة أحوالهم.

﴿١٠٥﴾ ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ما يريد اليهود ولا مشركو العرب أن يُنَزِّل الله على رسوله وحيًا يهدي به المؤمنين؛ حسدًا وبغيًا وبغضًا منهم لأهل الإسلام؛ لأن الوحي سبب لكل خير. ومصدر لكل سعادة، فهو أجلُّ نعمة، وأعظم كرامة، وأكبر عطية، ولكن الله اختص من آمن بمحمد ﷺ بهذا الفضل واختارهم لهذا الخير، وحرم منه غيرهم، وأبعد عنه سواهم، ففضله عظيم لا يحد، وخيره كثير لا يُعد، ونواله غزير لا يرد، فله الحمد، فالوحي رحمة وفضل، رحمة يمنع من اتبعه العذاب، وفضل يثمر لمن اهتدى به الثواب.

﴿١٠٦﴾ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما ننقل آية من حكم إلى حكم فنرفع حكم الأولى ونبقي حكم الثانية أو نمحها من القلوب إلا نزَّلنا أفضل منها وأنفع عاجلاً أم آجلاً، أو نزلنا مثلها في النفع والفائدة؛ لأن الذي ينزلها قادر على تغيير الأحكام وفْقَ أحوال الأنام، وتغير الأيام؛ لعظمِ حكمته وسعة علمه ونفاذ قدرته.

﴿١٠٧﴾ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

فما دام أن الله قدير يفعل ما يشاء، ذو ملك عظيم يتصرف بما يشاء، فله كمال القدرة والتصرف في آياته الشرعية، مثلما له كمال التصرف في آياته الكونية، فإذا تصرف في الخلق تصرف في الأمر ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾. فهو الولي الذي يجلب لعباده ما ينفعهم، والنصير الذي يدفع عن عباده ما يضرهم، ومن كمال ولايته بعباده اختيار الأحسن والأجمل من الآيات على قَدْر الأوقات، ونسخها بالأرفع، أو الإتيان بما ينفع، ومن كمال نصرته دفع ما يشق عليهم من التشريع وإعفاؤهم من التكليف بما لا يُطاق، فهل من ولي يتولاكم سواه؟ وهل من ناصر ينصركم غيره؟

﴿١٠٨﴾ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

هل ترغبون أن تسألوا -أيها المؤمنون- رسولكم محمدًا ﷺ سؤال تعنت واعتراض كما سأل بنو إسرائيل موسى حتى وصل بهم الحال إلى الكفر والتكذيب؟! والذي يختار الكفر على الإيمان ويستعيض الضلال بالهدى فقد أخطأ الصراط المستقيم والطريق القويم. أما السائل للاستفادة فهو مأجور؛ لأنه طالب علم يريد الفهم ورفع الوهم.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يتمنى كثير من أهل الكتاب حسدًا وبغيًا لو ترتدون عن الإسلام إلى الكفر؛ لما تحقق لديهم من أنكم على حق وصواب؛ ولأن دينكم سبب عزِّكم ومجدكم ونصركم وسعادتكم، فاثبتوا على دينكم، فلا تقابلوا هذه الإساءة بإساءة، ولكن بالإحسان من الحلم والصبر والكظم وعدم الأذى؛ لتُؤَلفوا القلوب إلى إسلامكم، وتحببوا الناس في دينكم حتى يأذن الله بمسلك آخر حيالهم كقتالهم مثلاً، والله ذو قدرة بالغة لا يعجزه شيء فعليه توكلوا وبه ثقوا.

﴿١١٠﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة؛ لأنَّها سبب كل نصر، وطريق كل فوز متى ما أحسنتم إقامتها، وعليكم بدفع الزكاة لمستحقيها؛ لأنها طهارة للقلوب، وكفارة للذنوب، ومرضاة لعلام الغيوب، فحق البدن الصلاة، وحق المال الزكاة، وإن تصدقتم غير الزكاة نفلاً فكله محفوظ عند الله، مكتوب عنده، تجدونه في صحائف الأعمال، وتحصلون على ثوابه عند ذي

الجلال، وهو - سبحانه - بصير بالنيات، مطلع على السرائر، يعلم المخلص من المرائي، والصادق من الكاذب، فراقبوه واخشوه وحده.

﴿١١١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

اليهود يقولون الجنة لهم، والنصارى يقولون الجنة لهم، وهذه مجرد دعوى لا دليل عليها، والمدعي بالباطل دَعِيٌّ، والمتكلم بلا برهان صاحب بهتان، فأين الدليل على ما ادعوه والحجة على ما قالوه من كتاب ناطق أو رسول صادق؛ بل دعواهم كذب فاضح وباطل واضح.

﴿١١٢﴾ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

كلا ليس الأمر كما زعموا وليس القول كما ادَّعوا، بل الصحيح أن من أخلص عبادة ربه ووحّده صادقًا، وعبده منيبًا، وهو مع إيمانه وإخلاصه محسن في عبادة ربه، محسن إلى عباده بحيث يعبده بما شرع لا بالبدع، فهذا له النعيم الدائم، والمكان الآمن والفوز العظيم في الجنة، ولا خوف عليه مما ينتظره في مستقبل أيامه؛ لأنه مؤمن، ولا حزن على ما قدم؛ لأنه محسن، والسعيد من أمِنَ العاجل والآجل.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

اليهود كفّروا النصارى، والنصارى كفّروا اليهود، وكل منهم يرى ضلال الآخر مع أن كلاً منهم عنده كتاب يبين لهم الحق من الباطل، ومن يستحق الكفر من غيره، لكنهم لم يهتدوا بهذا الكتاب، وإنما مجرد تلاوة بلا فهم ولا عمل، وقولهم هذا يشابه قول الجهلة من الأمم السابقة والفرق المنحرفة، والطوائف الهالكة التي يضلل بعضها بعضًا، ويكفّر بعضها بعضًا، وقد وقع هذا في هذه الأمة، وهو مما أخبر به المعصوم ﷺ، والله وحده - سبحانه - هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة في هذا الخلاف فيعلم المؤمن من الكافر.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لا أحد أظلم من الذي يمنع العباد من ذكر الله في بيوت الله بإقامة الصلاة فيها وتلاوة القرآن والتسبيح ومدارسة العلم النافع ونحوها من القربات، ولا أشد ظلمًا من الذي يجتهد في هدم المساجد والاعتراض على بنائها، وأيضًا تعطيلها من الطاعات والصلوات والقربات والعلوم النافعات، فعقوبات هؤلاء المخربين ألا يدخلوا هذه المساجد إلا ذليلين حقيرين خائفين جزاء وفاقًا؛ لتخويفهم المؤمنين، وهو ما حدث للمشركين في دخولهم الحرم على هيئة الأسر والذل، وكذلك المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، فإنه أدخلهم المسجد صاغرين خاسئين.

هذا في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب فظيع لا يُستَطاع، مؤلم لا يُطاق، وكما أنه لا أظلم ممن سعى في خراب المساجد، فلا أعظم أجرًا ممن بناها وعمّرها بالطاعة.

﴿١١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

والله - وحده - هو الذي يملك المشرق حيث تشرق الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ويملك المغرب حيث تغرب هذه الأفلاك، ومن يملك المشرق والمغرب يملك ما بينهما، فهو - سبحانه - المالك لكل شيء، فحيث ما تتجهون فهناك قبله الله فهذه الوجهة بأمره - سبحانه - وإليه الاتجاه.

والله سبحانه واسع في هباته، واسع في صفاته، ومن سعته أنه وسع عليكم في مأموراته ومنهياته، فلم يكلفكم العسر، بل قبل منكم اليسر، وهو عليم بالسرائر، مطلع على ما في الضمير، فمن علمه أن شرع لكم شريعة سمحة سهلة تناسبكم.

﴿١١٦﴾ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

وقال أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين إن الله اتخذ ولدًا؛ تنزّه عن ذلك وتقدّس عن هذا القول الباطل الآثم، فإنه - سبحانه - قاهر من في السموات والأرض، وهم عبيده مسخرون له، في حكمه وتحت سلطانه، [ولو اتخذ ولدًا لكان هذا الولد من جنس الوالد في الألوهية وخرج عن صفات المخلوق، وهذه لا تكون]، ثم إن من يملك من في السموات والأرض لا يحتاج إلى ولد؛ لأنه غني عن كل أحد، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ومن في السموات والأرض كلهم تحت تصرفه وحكمه وتدبيره، منهم القانت قهرًا، ومنهم القانت طاعةً وبرًّا.

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

وهو - سبحانه - مبدع السموات والأرض ومُنْشئهما على غير مثال سابق ولا شكل متقدم، هذا في الخلق، أما في الأمر، فإنه إذا أراد أن يقضي أمرًا فإنما هو في كلمة (كن) فلا يعجزه أمر، ولا يتعاظمه شيء، ولا يصعب عليه قضاء، فالخلق أنشأه، والأمر قضاه، لا إله إلا إياه، ولا نعبد سواه.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وقال الجهلة من أهل الكتاب والمشركين: لماذا لا يكلمنا الله كما يكلم الرسل، أو ينزل علينا آية مما اقترحنا مثل: أن نراه جهرة، أو ينزل علينا كتابًا من السماء، أو ينزل علينا ملكًا أو يُلقى إليه كنز، أو تكون له جنة، أو يفجر لنا من الأرض ينبوعًا ونحوها من الآيات، وهذا القول قال به المشركون ومن قبلهم اليهود والنصارى، فقلوبهم في الزيغ متشابهة، وفي الكفر متقاربة؛ لأن القلوب محل الإيمان والكفر والصلاح والفساد، وطلبهم، هذه الآيات للتعجيز والتعنت، وهو طلب المحال لا للفهم والاستدلال، وإلا لو أرادوا البيان والإيمان فتلك آياتنا الشرعية ظاهرةٌ للعيان باهرةٌ بالبرهان، لكن لا يَعِيها إلا من عظم إيمانه، ورسخت معرفته وكمل صدقه.

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

ومن أعظم الآيات وأجل العلامات إرسال محمد النبي الأمي العربي ﷺ، فإرساله آية باهرة وعلامة ظاهرة؛ لأنه أتى بمعجزات تبهر العقول سواء أكانت في نفسه أم كتابه أم سيرته أم في كل شؤون حياته، ثم إنه بُعث بالحق الذي ثبت لكل عاقل مؤمن صدقه القائم على الدليل القاطع، ثم إنه بَشَّر بالنصر والجنة لمن أطاعه فحصل هذا، وأنذر بالخزي والذل والنار لمن عصاه فتحقق ذلك، والرسول ﷺ إذا بَيَّنَ المحجة وأظهر الحجة للناس فليس مسؤولاً عن ضلال من ضل، بل هذا الضال المعرض يتحمّل جرمه وحده، ويأخذ عقوبته في نار جهنم؛ لأنه لا عذر له، فقد وَضُحَ له الطريق وقامت عليه البيّنة. فالداعية عليه البلاغ، والله عليه الحساب، فإما ثواب أو عقاب.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تترك دينك وتعتنق دينهم، فهم دعاة لدينهم المحرّف الباطل، فأَخْبِرْهم أن معك الهدى ومعهم الهوى، فهدى الله الذي أرسلت به هو الدين الصحيح الحق الذي لا يماثله دين، واحذر أن تتّبع الهوى والزيغ الذي يدعون إليه بعد ما جاءك العلم النافع المبارك من عند ربك، فأنت على الحق وهم على الباطل، ولو اتبعت دينهم وتركت دينك لن ينفعك ولي، ولن يدفع عنك الضر ناصر من دون الله؛ لأنه لا يجلب النفع ويدفع الضر إلا الله وحده، وإذا كان هذا التحذير للرسول ﷺ فكيف بأتباعه، وفي الآية تحريم موالاة اليهود والنصارى واتباع شيء من دينهم وحبهم والتشبه بهم، وبقاء عدائهم للمسلم حتى يترك دينه ويدخل في دينهم.

﴿١٢١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

الذين أنزلنا عليهم الكتاب فاتبعوه حق الاتباع، واهتدوا بهداه، وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، أولئك هم الصادقون في الإيمان به وحمله، لا من فرّق بين كتب الله ورسله وقال: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فمن هذا فعله من التكذيب والعناد فهو الخارج عن طاعتنا، المتمرد على شرعنا، الناكث لعهدنا، فجزاؤه الخسران والهلاك والعذاب الدائم.

﴿١٢٢﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

يا بني إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) تذكروا نعمي عليكم علّكم تراجعون أنفسكم وتشكرون ربكم؛ لأن ذكر النعم يوجب حمد المنعم، والتفكر في النعماء يقتضي الحياء من رب الأرض والسماء، فالله المنعم وحده لا سواه، وتذكروا يا أبناء يعقوب أنني فضلتكم على عالمي زمانكم بالرسل والشريعة، فهل جزاء هذا التفضيل وشكر هذا الاختيار التنكر والتكذيب؟!

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يوم القيامة بعمل الطاعات واجتناب المنكرات، فذاك اليوم لا تنفع نفسٌ نفسًا، ولا يؤخذ منها فداء تفتدي به من العذاب، ولا يشفع لها شافع يجلب لها النفع، ويدخلها الجنة إذا كفرت، وليس لها ناصر يدفع عنها عذاب جنهم، ومن تذكر القيامة وأهوالها خاف علام الغيوب وارتدع عن الذنوب.

﴿١٢٤﴾ ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لقد امتحن الله إبراهيم الخليل بأوامر ونواهٍ وفرائض وحدودٍ، فقام بها على التمام أحسن قيام، وأداها أحسن أداء، فاستحق الإمامة في الدين بالصبر واليقين، فصار إمامًا للعالمين، فأهل الكتاب كلهم يدعّون النسبة إليه، والانتماء إلى دينه.

فهو الإمام بحق وصدق، سيرته تُتلى، ومناقبه تُروى، والثناء عليه جليل، والمدح فيه جميل، فهو أمة في الهدى والرشاد، وأسوة للعباد، وقدوة لأهل العلم والجهاد، عندها سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته إمامًا ليبقى الأجر الجزيل، والثناء الجميل، فأخبره سبحانه أنه لن يُعطيَ الإمامةَ إلا عالمًا عاملاً، أما الظالم وهو الغاوي في العلم، والضال في العمل فلن ينال الإمامة في الدين، وفي الآية أنه لابد قبل التمكين من الابتلاء، وأن الإمامة عملٌ بالشرع ظاهرًا وباطنًا، وأن من فسد علمه وساء عمله لن ينال الإمامة أبدًا.

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗاۖ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

وكما جعلنا إبراهيم إمامًا يقتدي به الناس جعلنا البيت الحرام قبلة يستقبلها الناس ويتوجهون إليها؛ قاصدين المصالح الدينية والدنيويَّة، وأمَّنَّا الناس فيه، فمن دخله كان آمنًا، حتى إن من الأمن تحريم الصيد فيه وقطع الشجر، ثم أمر الله عباده أن يتخذوا من المقام الذي صلى فيه إبراهيم مصلًّى، وهو الذي فعله ﷺ لما صلى فيه بعد طوافه ركعتين، وأمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والأصنام، والمعاصي والآثام، وكل شرك ورجس، وكل قذر نجس؛ ليكون البيت مهيئًا لطواف الطائفين، واعتكاف العاكفين، وعبادة الراكعين الساجدين، ونسب البيت إليه سبحانه؛ للتشريف، وتعريف الناس به وبيان حرمته وعظيم مكانته ولزوم تطهيره.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

دعا إبراهيم ربَّه أن يؤمِّن البلد الحرام ويؤمن لأهله الغذاء؛ لأنه لا عيش لخائف ولا راحة لجائع، ولهذا أطعم الله أهله من جوع وآمنهم من خوف، وقيد إبراهيم الدعاء فاختص به المؤمنين؛ لأن الله منعه من الإطلاق في الدعاء بالإمامة، فأخرج الظالم، ولكن الله بيّن له في الرزق أنه على وجه الإطلاق للمؤمن والكافر، فللمؤمن عون على عبادة رب العالمين، وللكافر متاع إلى حين، وأما الإمامة فهي منزلة ربانية لا تنال إلا لمن قام بالشريعة حق القيام.

فإذا أعطى الله الكافر من الدنيا، ومتّعه كما يمتّع البهيمة ألجأه الله إلى عذاب أليم في جهنم، ويا له من مقام بائس وعاقبة مخزية.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر فضل الله على إبراهيم وإسماعيل لمَّا شرفهما ببناء البيت، ورفعِ أركانه على أساس قوي، ومع هذا العمل الصالح كانا بين خوف من الرد ورجاء للقبول، فسألا الله أن يتقبل هذا العمل، إنه السميع للأقوال، العليم بالأعمال والأحوال، الذي لا تخفى عليه النية، فيعلم المخلص من المرائي والصادق من الكاذب.

﴿١٢٨﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ثم سألا الله البقاء والدوام على دين الإسلام؛ لأنه أجل النعم وأعظم الكرامات، وأثمن العطايا، وهو الانقياد والخضوع ظاهرًا وباطنًا لله تعالى.

وسألا الله صلاح الذرية؛ لبقاء العقب الصالح، والدعاء النافع، والذكر الحسن، وطلبا بيان مناسك الحج ومعالم الدين والعبادة على وجه المشاهدة؛ ليكون أنفع في التعليم، وأثبت في القلب، وبعد عملهما الصالح سألا الله التوبة؛ لأن العبد مهما بلغ في الصلاح فهو عرضة للذنب والتقصير والغفلة والخطأ، والله أهلٌ أن يتوب على عباده؛ لأنه يتوب على العاصي بمحو ذنوبه، ويرحمه بترك عقابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ثم سألا الله أن يرسل في ذريتهما رسولاً من أنفسهم، فاستجاب الله لهما، فبعث سيد ولد آدم وهو محمد ﷺ أعظم نعمة لله على البشرية، وأفضل هبة من الله للإنسانية، فهو دعوة إبراهيم كما قال عليه الصلاة والسلام، وأتى معه بكتاب هو خير الكتب، كما أنه هو خير الرسل، يعلّم الأميين ويهدي الضالين، ويقيم الحق بين العالمين.

ورسولاً منهم ليتم الاقتداء والائتساء به؛ لكونه بشرًا مثلهم، وهو يعلمهم هذا الكتاب العظيم ليأخذوه عنه تلقيًا وتلقينًا وحفظًا وتعليمًا، ويطهرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق النبيلة، وينهاهم عن كل إثم وقبيح، فهو - سبحانه - عزيز حكيم، عز فحكم، واطلع فعلم، وقدر فحلم، فمع أنه عزيز لا يغالبه أحد، ولا يمتنع عليه أحد، لكنه حكيم يدبر الأمور بحكمة، ويقضي الأشياء في سداد، وينفذ الأحكام في سداد، فعزة بلا حكمة تهور وطيش، وحكمة بلا عز ضعف.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

لا يختار أحد ملة غير ملة إبراهيم الوسط الراشدة السمحة غير سفيه جاهل، يسعى في الإضرار بنفسه؛ لأنه لا يعرف مصلحتها، ولذلك اختار غير هذه الملة، ولقد اخترنا إبراهيم، وهديناه الصراط المستقيم، ورفعنا مقامه بمنصب الإمامة، فأحسن الملل ملته، وأفضل الأديان دينه، وهو في الآخرة من أئمة من أنعم الله عليهم، فطوبى لإبراهيم، وقرة عين وسلام على إبراهيم في العالمين.

﴿١٣١﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لأنه لما أمره الله بالانقياد له والعبودية والطاعة استجاب قولاً وفعلاً وحالاً للإله الذي يستحق الألوهية، الذي رباه وربى العالمين بنعمه، فحقه أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا يُنسى.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وهذه الملة وصى بها إبراهيم بنيه وذريته من بعده ليلزموها، وأنتم - أيها اليهود - وصى أبوكم يعقوب أبناءه من بعده بملة إبراهيم، فلماذا تركتم هذه الوصية؟ فإن هذه الملة اختارها الله ورضيها لأنبيائه ورسله، فتمسكوا بها حتى الموت، فإن الإسلام دين الله المرتضى وملته المختارة، وهو دين الرسل جميعًا.

وفي الآية مشروعية وصية الوالد لأبنائه، وأن الدين أهم المهمات، وحرص المسلم على ذريته ونصيحة العالم لأتباعه.

﴿١٣٣﴾ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

اليهود غيروا ملة إبراهيم ويعقوب؛ ولهذا أنكر الله عليهم، وأخبر أن نبيهم يعقوب لما حضره الموت جمع أبناءه فأوصاهم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ونهاهم عن الشرك، فأقروا بإله واحد مع الاستسلام له، فجمع بين صحة العقيدة وصلاح العبادة.

وفي الآية سؤال العالم لطلابه وتقرير العلم لهم ومدارسته لهم ما يعرفون، والبدء بأبرز المسائل، واستحضار التوحيد عند سكرات الموت.

﴿١٣٤﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

إبراهيم ويعقوب ومن معهم من الصالحين أمة قضت وانتهت بصلاحها وفلاحها، لا ينفعكم - أيها اليهود - التعلق بهم بلا عمل ولا اتباع، فمجرد النسبة لا توجب النجاة، فعملهم النافع لهم وحدهم، وعملكم السيئ القبيح عليكم وحدكم، لا تزر وازرة وزر أخرى، فالإنسان إنما يحاسب هو، فحسنات غيره لا تُهدى إليه، وسيئات سواه لا تناله، كما أنه لا يسأل عن غيره، ولا يظلم بسوء ما عمله، ولا يهضم بحرمانه من خير فعله.

﴿١٣٥﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال اليهود للمسلمين: كونوا يهودًا؛ لأن الهدى معنا. وقال النصارى للمسلمين: كونوا نصارى؛ لأن الهدى عندنا، وهذا كذب قبيح، وكلام غير صحيح، وأرشدنا الله إلى أن نردَ عليهم فنقول بل: نتبعُ ملة إبراهيم الخليل، وهي دين الإسلام الحنيفية السمحة والشريعة الوسط، فإبراهيم كان مقبلاً على التوحيد معرضًا عن الشرك، أما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، فأين التوحيد والهدى لديهم؟!

وفي الآية حرص اليهود والنصارى على الدعوة إلى دينهم الباطل؛ فالمسلم أولى بالدعوة إلى دينه الحق.

﴿١٣٦﴾ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

قولوا - أيها المسلمون - آمنا بالله مقرين معترفين بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، معلنين هذا الإقرار ناطقين به، معتقدين بالقلوب، عاملين بمقتضاه بالجوارح، ونؤمن بما في كتابنا وسنة رسولنا ﷺ وما نزل على أنبياء الله بمن فيهم صاحب الملة الإمام الأسوة إبراهيم، وما نزل على النبيين بعده من كتب، نحن نؤمن بجميع الأنبياء فلا نفرِّق بينهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله وما نزل عليهم من ربهم كصحف إبراهيم، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، ونحن على ذلك طائعون منقادون، نعلن هذا المبدأ مجتمعين عليه صادعين به، وإيماننا على وجه الإجمال لما جاء مجملاً، وعلى وجه التفصيل لما جاء مفصلاً.

وفي الآية إعلان المبدأ والاجتماع عليه، وتصديق كل الرسل والكتب من عند الله، وأن عطية الأنبياء أجلّ عطية؛ لأنها من ربهم، وهي الوحي، وأن من ربوبيته سبحانه هداية الخلق، وكفر من جحد نبوة نبي، وأن الإسلام دين الجميع.

﴿١٣٧﴾ ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

فإن آمن أهل الكتاب بجميع الرسل بمن فيهم محمد ﷺ، وجميع الكتب بما فيها القرآن، ووافقوكم في هذا الإيمان فقد أحسنوا وأصابوا، وإن أعرضوا عن هذا الهدى وجانبوا هذا الطريق فهم أهل تفرق وخلاف وفتنة، لا يريدون الهدى والاجتماع على الخير، فلا تخف منهم، ولا تضق بمكرهم؛ فالله وحده يكفيك أذاهم ويرد كيدهم، وينصرك عليهم؛ لأنه سميع بكل قول مع اختلاف اللهجات وتعدد اللغات، عليم بما بطن وظهر، وأعلن واستتر، وما خفي وما جهر، فمن هذا وصفه فكفى به وكيلاً ونصيرًا.

﴿١٣٨﴾ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

فهذا دين الله وهذا صراطه، فالزموه واتصفوا به حتى يكون لكم صفة دائمة ثابتة كالصبغة في الثوب، وهل هناك أحسن من هُدَى الله؟ أم هل هناك أقوم من دينه؟ فمن اتصف بهدى الله صدق وبر ووصل وعلم وعلَّم وجاهد وصبر وتواضع وأحسن في كل شأن من شؤون حياته، ومن ترك هذا الهدى ذلّ وزلّ وضلَّ وأصابه الخذلان ووقع في الخسران، ونحن طائعون لربنا منقادون لأمره، مخلصون له الدين، مقتدون برسوله الكريم، وهذه هي العبادة الصحيحة التي تجعل الإنسان عبدًا لربه ظاهرًا وباطنًا.

﴿١٣٩﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾

قل - أيها الرسول وأيها المسلم لأهل الكتاب-: أتجادلوننا في ربنا -جل في علاه- وتزعمون أنكم أولى به منا، وأنه ربكم وحدكم وهو الذي خلقنا وخلقكم ورزقنا ورزقكم، فأي تفريق هذا والله رب الجميع؟ ثم إن صلاحنا لنا وضلالنا علينا، وأنتم حسناتكم لكم وسيئاتكم عليكم، ونحن نخلص عبادة ربنا لا كما فعل أهل الكتاب من الإشراك مع الله غيره، فإخلاص العبادة هو أصل الأصول ورأس الأمر، فنحن نتفق مع أهل الكتاب في الربوبية وهي أن خالقنا واحد، ونختلف معهم في الألوهية فنحن موحدون مخلصون وهم مكذبون مفرّقون.

﴿١٤٠﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

لماذا تدَّعون كذبًا وزورًا - يا أهل الكتاب - فتزعمون - أيها اليهود - أن إبراهيم وأبناءَه وحفدته كانوا يهودًا وهذا كذب وافتراء، وتزعمون - أيها النصارى - أن هؤلاء الرسل نصارى وهذا دجل وادعاء، فالله أخبر أنهم على الحنيفية ملة إبراهيم، وعلى الإسلام دين الأنبياء، وأنتم تخالفون هذا القول، فهل أنتم أعلم بهم من ربهم الذي خلقهم وهداهم وأرسلهم؟ بل الله أعلم وأصدق وأنتم أجهل وأكذب، ومن أشد ظلمًا وأقبح جرمًا منكم؛ لأنكم كتمتم شهادة عندكم من الله بالإيمان بكل الرسل والكتب، فكتمتم وكذبتم، كتمتم الحق وكذبتم في الشهادة، فالله لن يغفل عن هذا الفعل القبيح، بل هو محصيه ومجازيكم به أسوأ الجزاء، ومن كان الله عليه فمن يرجو، ومن كان معه فمن يخاف.

﴿١٤١﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ ۖ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وهذه الأمم السالفة مضت وانتهت، لستم مسؤولين عن إحسان من أحسن منهم، وإساءة من أساء، فصلاح صالحهم له لا يصلكم منه شيء، وفساد مفسدهم عليه لا ينالكم منه شيء، وإنما تجازون أنتم بأعمالكم، فلا نضيف حسنة لمن لم يعملها، ولا نُحَمِّل أحدًا سيئة لم يفعلها.

﴿١٤٢﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

سيقول الجُهلاء من اليهود والنصارى: لماذا تركتم قبلة بيت المقدس واستقبلتم الكعبة؟ مدعين أن هذا تذبذب وحيرة، فرد عليهم - سبحانه - بأن الجهات كلها لله بما فيها المشرق والمغرب، وهو الذي خلقها، يوجه من شاء من عباده إلى أيّ جهة شاء منها، فلماذا الاعتراض من هؤلاء الجهَلاء السفهاء؟

وأما توجيهه للمسلمين إلى الكعبة فهو أمرٌ منه - سبحانه - لحكمة أرادها؛ لأن الكعبة بناء إبراهيم الخليل الحنيف المسلم صاحب الملّة، فهي أولى بالاستقبال عند الصلاة، ثم إن المسلمين مُطيِعون لأمر الله سواء في استقبال بيت المقدس أو الكعبة، وأن طريق المسلمين ومنهجهم هو الصحيح الحق؛ لأنه من عند الله.

وفي الآية أن المعترض على الشريعة سفيه، وأن من جهل شيئًا عاداه، وأنه يُرَدُّ حتى على الجاهل ويبين له الصحيح في المسألة، وأن المعترض على الثوابت هالك، وأنه يجب التسليم حتى فيما خفيت الحكمة منه.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

ومن نعمة الله عليكم - أيها المسلمون - أن جعلكم وسطًا بين الأمم، وهي أعدل الطرق وأصوبها، فلا إفراط ولا تفريط، ولا علو ولا جفاء، فأنتم وسط في المعتقد والعبادة، وفي الأنبياء وفي الأخلاق والآداب والسلوك، وكل شؤون الحياة، فلا فسق اليهود، ولا رهبانية النصارى، ولا محاربة للرسل ولا عبادة لهم بل اتباع، فالمسلمون حسنة بين سيئتين، ووسط بين طرفين، ونجاة بين مهلكتين، وإنما جعل الله المسلمين وسطًا وعدولاً وخيارًا؛ ليقوموا بالشهادة على الناس، فقولهم مقبول، وحكمهم نافذ، وهم صادقون فيما يقولون، عادلون فيما يحكمون، وسوف يشهدون يوم القيامة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل إليهم؛ لأن العدل يُقبل قولُه، وتصح شهادتُه لانتفاء التهمة، فقوله وحكمه وفتياه مقبولة، فهذه الأمة في مجموعها معصومة من الخطأ، إجماعها حجة، ومخالفتها ضلال، والخروج عليها بغي، والرسول ﷺ - وهو أعدل العدول وإمام الأئمة - شهيد على الأمة، فهو يشهد لمن أطاعه، ويشهد على من عصاه، ويشهد بصدق رسالته، ويشهد لمن قبله من الأنبياء، ويشهد على سائر الأمم يوم القيامة، والله ما أمر الرسول ﷺ باستقبال بيت المقدس إلا ليعلم علمًا يثيب عليه من أطاعه، ويُعَاقِب عليه من عصاه؛ لإقامة الدليل وبيان الحق والإعذار للناس؛ فيظهر من يطيع الرسول في استقبال القبلتين والتنقل معه في سائر أحوال الطاعات وتعدد العبادات، ويظهر من اعترض على الحق واتبع الهوى وخالف الرسول، ورفض الدليل.

وصَرْفُ الرسول ﷺ عن بيت المقدس إلى الكعبة شاق صعب؛ لعدم ظهور الحكمة لبعضهم وللحسد عند الآخرين. لكن من هداه الله فأسلم لربه ومولاه انقاد طائعًا، وأقبل مخبتًا، وسلّم الأمر لربه، ولم يعترض ويحتر ويتردد، وهذا شأن المسلم يسارع في تنفيذ أمر الله ظهرت له الحكمة أم لم تظهر؟

والله لا يضيع عمل المؤمنين وصلاتهم، ولا يبطل سعيهم بلا موجب، فهو حافظ لإيمانهم، من وفقه للطاعة زاده هدى، ومن وقع منهم في ذنب فتح له باب التوبة، ومن ابتلاه بمصيبة محَّصه بها، فالعباد في نعمة تُشْكَر، وذنب فيه يُسْتَغفر، ومصيبة تمحو وتُكَفِّر، والذين استقبلوا بيت المقدس من المسلمين ثم ماتوا ولم يصلوا للكعبة إيمانهم محفوظ، وسعيهم مشكور.

وفي الآية أن العمل يدخل في الإيمان، وثبوت النسخ، ووجوب التسليم، وهو - سبحانه - رؤوف يوصل المحاب إلى عباده من ألطف الطرق، ويصرف المكاره عنهم، وهو رحيم يعود على المذنب بالتوبة، والخائف بالأمن، والمكروب بالفرج، وعلى صاحب العسر باليسر، وعفا عنه فلا عتاب ولا عقاب.

﴿١٤٤﴾ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

ولقد رأى الله رسوله ﷺ وهو يقلب وجهه في كل الجهات شوقًا وانتظارًا لأمر الله له باستقبال الكعبة؛ لأنه يريد قبلة إبراهيم مثلما كان على ملته الحنيفية السمحة، فالآن سوف نوجهك إلى قبلة تحبها وتتمناها وتريد أن تتجه إليها، فعليك باستقبال جهة المسجد الحرام، بيت إبراهيم وبلدك، وعلى أمتك جميعًا أن يستقبلوا هذا البيت في أي مكان كانوا برًّا وبحرًا أو جوًا حسب الاستطاعة.

وأهل الكتاب يعلمون أنك على حق في استقبال الكعبة؛ لأنك صادق عندهم في كتبهم؛ ولأن هذا الأمر معلوم عندهم من طريق رسلهم، لكنهم كابروا بغيًا وحسدًا؛ فالله محصٍ ما فعلوا؛ وحافظ ما عملوا من قول كاذب وفعل سيئ؛ ليوفيهم إياه ويجازيهم به في دار الثواب والعقاب.

﴿١٤٥﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ولو عرضت كل برهان ودليل وحجة على أهل الكتاب ليتبعوا قبلتك ما فعلوا؛ حسدًا لك ولأمتك، وبغيًا منهم واستكبارًا على الحق، واعتراضًا على الدليل وعنادًا للحجة، وأنت أيها الرسول لن تتبع قبلتهم؛ لأن الحق معك، أنت عبد مأمور من ربك، وهم أهل باطل وزيغ وهوى، ثم إن أهل الكتاب من يهود ونصارى لا يتبع بعضهم قبلة بعض بغيًا وحسدًا، فكيف يتبعون قبلتك، فاحذر كل الحذر أن تتبع أهواءهم الباطلة؛ لأنهم تركوا الهدى واتبعوا الهوى، وأنت على علم بيِّن من ربك وسلطان ساطع ويقين راسخ، فإن آثرت الباطل على الحق، والهوى على الهدى من بعد هذا البيان والبرهان فأنت إذًا ممن بدّل الحقائق وغيَّر الأدلة، ورفض الحجة وهو الظالم، وحاشاه ﷺ، ولكنه إذا كان هذا الوعيد والتهديد له فمن باب أولى أن يكون لمن اتبعه، فمن والاهم من المسلمين فهو منهم يحشر معهم.

﴿١٤٦﴾ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

اليهود والنصارى يعرفون محمدًا ﷺ حق المعرفة مثلما يعرف الإنسان ابنه؛ لأنهم قرؤوا أوصافه في كتبهم، لكن طائفة منهم كذبت به وكتمت أمره بغيًا وحسدًا، وهم يعلمون أنه رسول من عند الله، وطائفة آمنت به وصدقته، والعالم الكاتم آثم؛ لأنه صد عن عمد.

﴿١٤٧﴾ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

هذا الوحي الذي نزل عليك - يا محمد - هو الحق؛ لسطوع برهانه ووضوح بيانه، فاعتصم به، واستمسك به، وادع إليه، ولا تشكَّ فيه. فإنك على الحق المبين، وأعداؤك ضالون.

﴿١٤٨﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لكل أمة من الأمم قبلة يتجهون إليها، وقد تتغير بنسخ، لكن المسألة الكبرى والقضية العظمى مسألة الشريعة الحاملة للخيرات، الناهية عن المنكرات، والسبق للخيرات هو الإسراع والتنافس في أدائها على أكمل وجه تامة الأركان والشروط، مستوفية للآداب والسنن، والخيرات اسم جامع لكل عمل مشروع وفعل حسن وخلق نبيل، ثم ذكرهم - سبحانه - بأنه سوف يجمعهم من الأقطار كافة، من القفار والأمصار والبحار؛ ليجازيهم في تلك الدار ويثيب الأبرار، ويعاقب الفجار؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، علا فقهر، وحكم فقدر، واطلع فستر، وعزّ فغفر.

﴿١٤٩﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وفي أي مكان كنت في سفرك وإقامتك فتوجه في صلاتك إلى الكعبة؛ لأن هذا أمر من الله حق لا باطل، ويقين لا شك فيه، فأنت على الهدى في ذلك؛ لأنك امتثلت أمر الله، وكما أطعتموه في الظاهر باستقبال القبلة فأطيعوه في الباطن بالمراقبة؛ لأنه لا يغفل عن أعمالكم بل سوف يحاسبكم بها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فَشر.

﴿١٥٠﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

كرر الأمر بالتوجه إلى الكعبة؛ لرفع الشبهة وإزالة الشك والحَيْرة؛ لأن الأمر صعب وشاق، وللرد على المبطلين من أهل الكتاب والمشركين في قولهم: هذا من محمد للتشهي والهوى، واتجاه الرسول ﷺ إلى الكعبة يقطع حجة اليهود القائلين: يخالف ديننا ويتبع قبلتنا، ويقطع حجة المشركين القائلين: يدعو إلى ملة إبراهيم ويخالف قبلته، أما الظالم وهو صاحب الهوى الرافض للدليل المعرض عن الحق فلا سبيل إلى إقناعه، ومثله لا يُخْشى؛ لأنه صاحب باطل، وصاحب الباطل ذليل؛ لأنه ليس له دليل، ومخذول لأنه خالف المنقول والمعقول، والله أراد من تحويل القبلة إقامة الحجة كما تقدم، وإتمام النعمة بهدايته إلى قبلة يتمناها مثلما هداه إلى ملّة يرضاها، وفي استجابتكم لأمر الله هداية لكم؛ لأن من علم الحق وعمل به، زاده من الإيمان، وبوّأه الجنان، وأنعم عليه بالرضوان.

﴿١٥١﴾ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

ومثلما أنعمنا عليكم بالقبلة فقد أنعمنا قبلها بنبي الملة، رسول معه شريعة، منكم تعرفون صدقه، يدرّسكم الوحي، ويلقنكم الحكمة، ويطهركم بدينه من كل رجس ودنس، فيصفي نفوسكم من كل شرك وشك وشبهة وشهوة، ويهذب أخلاقكم ويعلمكم الأحكام من الكتاب والسنة، ويخبركم بما لم تكونوا تعرفونه من أمر الدين والدنيا، ومن غيب الماضي والمستقبل.

﴿١٥٢﴾ ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

فما دام أنني أنا المنعم وحدي فاذكروني أذكركم، فمن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، ولو لم يكن للذكر شرف إلا هذا لكفى، ويدخل في ذلك ذكره بالعبادة ليذكر عبده بالثواب، وذكره في الرخاء ليذكره في الشدة، ثم أمر عباده أن يشكروه على نعمه وآلائه، ومن أعظمها نعمة الهداية، ومن لوازمها العلم النافع والعمل الصالح، فكل نعمة دَقَّت أو جلّت، صغرت أو كبرت فالله مسديها ومهديها، فمن شكره بقلبه ولسانه وجوارحه استوجب المزيد، ومن كفرها باء بالخسران، فالذكر والشكر أصلان عظيمان، عليهما تقوم العبودية الحقة، فبالذكر تعظم الولاية، وبالشكر تدوم الرعاية.

﴿١٥٣﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يا أيها المؤمنون، استعينوا على طاعة ربكم بالصبر والصلاة؛ لتهون عليكم المشقة، فبالصبر ينال كل مطلوب ومحبوب، وبالصلاة تدفعون كل مبغوض من الذنوب؛ فالصبر يأمر بكل خير وبر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، واعلموا أن الله مع من صبر بحفظه وتأييده وتسديده، فما أشرفها من معيَّة، وما أعظمها من رعاية ربانية.

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

ولما أمرهم بالصبر ذكر لهم أمرا من أشق ما يكون على النفوس، وهو القتل في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، فالمقتول في سبيله ليس ميتًا، بل له حياةٌ مُخَصَّصَةٌ من التنعم في جوار ربه، والأنس بقربه، والفوز برضوانه وحبه، فما أعظمها من حياة، وما أسعدها من عاقبة، وهكذا فلتذهب النفس في سبيله. وحيا الله الموت لأجله، ومرحبًا

بالسيف في مرضاته، فأنتم أيها الناس لا تعلمون بحياتهم ونعيمهم وراحتهم، فالميت من مات قلبه بالعصيان، ومن حاد عن طاعة الرحمن.

وفي الآية إثبات نعيم البرزخ وعذابه.

﴿١٥٥﴾ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

لنختبرنكم بشيء من المصائب والشدائد؛ ليظهر الصادق من الكاذب مثل: الخوف من الأعداء، وقلة الغذاء، وذهاب بعض المال، وتكدر الحال، وموت الأحباب، والأقارب والأصحاب، وهلاك الثمار، وفناء الأشجار؛ لنبتليكم في هذه الدار؛ لأنها ليست دار قرار، ولن ينفعكم في هذه الحال والامتحان القاسي غير الصبر، فمن صبر فله الظفر، فهو الذي يُوَفَّى أجره بغير حساب، وينال أعلى الثواب، وتدخل عليه الملائكة من كل باب.

﴿١٥٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

هؤلاء المؤمنون إذا وقعت بهم المصائب قالوا: نحن عبيد الله وملك لله، يقضي فينا ما يشاء من سراء وضراء وشدة ورخاء، فنحن تحت تدبيره ورهن تقديره، وسوف نرجع إليه للحساب، فمن صبر فله الثواب، ومن جزع فعليه العقاب، فالصابر مرحوم، والساخط محروم.

﴿١٥٧﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾

فهؤلاء الصابرون لهم ثناء وتمجيد من الحميد المجيد، ولهم الرحمة والرضوان من الدّيان، لأنهم اهتدوا لعبودية ربهم بالشكر على النعم، والصبر على النقم، فالصلوات من الله تاج قبول، والرحمة أمان من الخسران، والهداية توفيق لأقوم طريق.

﴿١٥٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

الصفا والمروة من مناسك الحج، فعلى الحاج والمعتمر أن يسعى بينهما سبعة أشواط؛ لأن بعض الصحابة تحرّج من السعي بينهما لفعل المشركين، وخاف من التشبه بهم، فأخبر سبحانه أن هذا العمل مشروع، وأن المسلم يفعله عبادةً لله، والمشرك للأصنام، وقيدهما بالحج والعمرة؛ لأن السعي لا يكون دونهما بخلاف الطواف.

وفي الآية أن الأعمال بالنيات، وألاَّ نترك شيئًا من ديننا إذا فعل مثله الكافر خوف التشبه، وحرص الصحابة على البعد عن أعمال الجاهلية. والله شاكر لمن يعمل، يقبل اليسير ويهب الكثير، فهو يجازي على مجرد النيات، ويضاعف الحسنات، ويعيد ثواب الطاعات، فهمًا في الأذهان، وعافيةً في الأبدان، وحسنًا في الخلق، وبركة في الرزق، كل بحسب طاعته ونيته وسعيه؛ لأن الله عليم بقدر كل أحد وما يستحق، فكل عطاء بحكمة، وفي كل هبة رحمة.

﴿١٥٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾

كل من كتم الحق من أهل الكتاب أو من هذه الأمة فإنه ملعون، والحق يشمل البينات الدالة على الحق التي أنزلها الله على رسوله، أو كتم العلم النافع الواجب نشره من فتيا أو قضاء أو شهادة، فمن هذا شأنه فجزاؤه الطرد من رحمة الله، وتقع عليه لعنة الخليقة؛ لأنه خان مولاه، وكتم ما أعطاه، وغش عباده، وأخفى البيان، وأظهر البهتان، واتخذ التدليس شعارًا، والتلبيس دثارًا، فكما أن معلم الخير يصلي عليه كل شيء؛ فكاتمه يلعنه كل شيء جزاء وفاقًا.

﴿١٦٠﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

إلا الذين رجعوا عما اقترفوا، وتابوا عما أسرفوا، وندموا وأقلعوا واعتذروا إلى ربهم وأصلحوا ما سبق أن أفسدوه، وأظهروا ما كتموه، فهؤلاء يقبل الله توبتهم، ويغسل حوبتهم، ويغفر زلتهم؛ لأنه تواب يرجع على عباده بالعفو إذا تابوا، وبالإحسان إذا أنابوا؛ ولأنه رحيم لا يؤاخذ بذنبٍ غفره لصاحبه، بل يحسن إليه ويتغمده برحمته.

﴿١٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يؤمن فهذا مستوجب للعنة الدائمة من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿١٦٢﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾

ومن مات كافرًا فاللعنة عليه دائمة مع الخلود في نار جهنم لا يخفف عذابه، بل يزاد ولا يؤجل، بل ربه له بالمرصاد، فعذابه خلود بلا انقطاع، وزيادة بلا تخفيف، ومبادرة بلا إمهال. وسيمكثون في هذه اللعنة وفي النار لا يخفف عنهم العذاب الأليم بلا إمهال ولا تأخير.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إلهكم - أيها الناس - هو الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له ولا مثيل، ولا ندَّ ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لا معبود بحق سواه، ولا إله يستحق العبادة إلا إياه، فلا إله إلا الله، ومن أدلة وحدانيته أنه رحمن رحيم، رحمن بكل المخلوقات؛ لأنه صاحب الهبات، ومعطي الخيرات، وصارف النقمات، ورحيم بأوليائه رحمة مُخَصَّصة يوصل لهم هداه، ويوفقهم لرضاه. ويصرفهم عما يكرهه ويأباه، فمن هذا وصفه استحق أن يكون الإله المعبود بحق.

﴿١٦٤﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

خلق السموات وارتفاعها واتساعها وشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها؛ آية باهرة، وعلامة ظاهرة على عظمة الخالق وحكمته، وشاهد على ربوبيته، خَلْقُ الأرض وامتدادها وجبالها ووهادها وسهولها دليل على بديع صنع اللطيف الخبير، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بدقة وطولهما وقصرهما رسالة موحية لكل عاقل بعظمة المبدع وجلال الصانع تقدس اسمه، والسفن العظيمة وهي تحمل الأحمال الثقيلة من الحديد والناس والأرزاق أعجوبة مذهلة توحي بألوهية العزيز الجبار سبحانه، إنْزَالَ الماء من السماء وهطوله على الأرض وإخراج النبات والأشجار برهان ساطع ودليل قاطع على تمام القدرة وكمال الحكمة لهذا الرب العظيم والملك الكريم، تَعَدُّدُ المخلوقات من الناس والحيوانات والطيور والزواحف باختلاف الصور والألوان والأشكال والألسن كتاب مفتوح لكل متدبر، وسفر مشروح لكل متفكر، وُهُبُوبُ الرياح من كل اتجاه، سريعة وبطيئة، نافعة وضارة، قاصف وعاصف، حارة وباردة، تنبيه موحٍ، وبلاغ مهم لكل من يحترم عقله، ويقدر إنسانيته، فيعلم من أوجدها وأرسلها، والسحاب كالهضاب، والغمام كالآكام، يحمل كميات كبيرة من المياه بين السماء والأرض، وكيف يمطر، وكيف يعبر، وطريقة انتشاره وتراكمه، وارتفاعه وانخفاضه، بيان فصيح وإرشاد صحيح بحكمة الملك الحق المستحق للعبودية، المستحق للألوهية، لكن تلك الآيات الباهرة هي لمن كان له عقل يعتبر، أما الجاهل والجاحد والمكذب فمطموس البصيرة، منكوس القلب، محجوب البصر عن هذه الآيات.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾

من الناس مَنْ لكفرهم وجهلهم من يعبدون غير الله ويجعلونهم شركاء لله - تعالى الله عن ذلك - ويتولونهم ويحبونهم مثل حبهم لله الذي خلقهم ورزقهم، وهذا لعنادهم وإلحادهم، ولكن المؤمنون عرفوا الحقيقة، وسلكوا أحسن طريقة، فأحبوا الله أشد من حب الكفار للأنداد والأوثان، فصدقوا رسله، وآمنوا بكتبه، وجاهدوا في سبيله، ولو رأى هؤلاء

الكفرة الفجرة العذاب في نار جهنم لرأوا أمرًا مذهلاً مهولاً، وعلموا عظمة الله وأحقيته بالألوهية في وقت لا ينفع الندم بعد عثرة القدم، حينها يشاهدون قوة الله وعذابه وبطشه ونقمته.

﴿١٦٦﴾ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾

حينها يتبرأ المتَّبَعون المطاعون من التابعين الجُهلاء، ويتخلى الرؤساء المضلون عن أنصارهم السفهاء؛ لأنهم شاهدوا ما لا طاقة لهم به من العذاب وأليم العقاب، وتقطعت بهم الأسباب من الأحساب والأنساب والمنافع التي تربط الأصحاب، والصلات التي تجمع الأحباب.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

وتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا فيخلعون زعماءهم المضلين، وينبذون رؤساءهم الكافرين مثلما تبرأ الرؤساء منهم وتخلوا عنهم سواء بسواء، لكن هيهات سبق الكتاب ووقع الحساب، وحلت العقوبة لينال الرئيس الضال جزاء عمله ونكال إغوائه، ويذوق التابع المقلد وبَالَ تقليده وسوء محاكاته، لتظهر للجميع أعمالهم القبيحة ندمات وحسرات وزفرات وآهات، فلا شافع ينفع، ولا ولي يدفع، ولا ناصر يرفع، بل عذاب أليم، وخزي مقيم، في خلود أبدي، وبقاء سرمدي.

﴿١٦٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

يا أيها البشر، كلوا من رزق ربكم الذي أخرجه لكم من الأرض، لكن عن طريق الحلال لا الحرام، فلا تأكلوا ما حرمه الله من غصب أو سرقة أو ربًا أو رشوة أو نحوها من المعاملات المنهي عنها، ولا تقربوا الخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما نص الله ورسوله على وجوب اجتنابه، بل اقصدوا الطيب الحلال، فإن أخذكم من الغذاء بقدر إقامة الحياة واجب، واحذروا أن تسلكوا سبل الشيطان في تحريم الحلال وتحليل الحرام، بل عليكم بما شرعه الرحمن؛ لأن الشيطان عدو لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير، ولا يدل إلا على رَدَى، ولا يحذر إلا من هُدِى، وقد بانت عداوته، وظهر غشه وخداعه ومكره.

﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

فالشيطان لا يأمركم إلا بالسوء كالظلم والأذي والبغي والعدوان والفحشاء كالزنا، وشرب الخمر، فالسوء ما ساء صاحبه، والفحشاء ما فحش عند الناس وخرج عن العرف والقياس، ومما يأمركم به الشيطان القول على الله بالجهل لا بالعلم، كنسبة الزوجة والولد له - سبحانه - والخوض في ذاته، وتحريف أسمائه، وتأويل صفاته، وتبديل آياته، والتحليل والتحريم بلا علم، والإضافة إلى الشرع ما ليس منه بلا فهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

وإذا نُصِحَ هؤلاء المشركون باتباع ما أنزل الله على رسوله من الهدى والبيان رفضوا النصيحة، وقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه الآباء، فيقال لهم: حتى ولو كان الآباء سفهاء أغبياء لا عقل يردعهم عن الضلال، ولا هدى يدلهم على طاعة ذي الجلال، فقد فقدوا سداد المعقول، ونور المنقول.

﴿١٧١﴾ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

مثل هؤلاء الكفار في عدم انتفاعهم بنصوص الوحي وأنوار الشريعة كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه، فهي تسمع الصوت ولا تفهم الخطاب، فهؤلاء الكفار يسمعون اللفظ ولا يعرفون المعنى، ويصلهم الصوت ولا يدركون الفحوى، انطمست منهم البصيرة فهم في حيرة، فلا رادع من عقل، ولا وازع من نقل، صم عن الهدى، خرس عن الحق، عمي عن الصواب، لا يعرفون الرشاد ولا يوفقون للسداد، ألسنتهم خرساء، وعيونهم عمياء وآذانهم صماء، وقلوبهم في غطاء، يعيشون كالأنعام، ويسرحون كالهوام، فحياتهم حياة بهائم، وعيشهم عيش السوائم.

﴿١٧٢﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾

فما دام الكفار أخطؤوا في عبادتهم ومطعمهم فعبدوا الأصنام وأكلوا الحرام فأنتم - أيها المؤمنون - كلوا من الطيبات واشكروا رب الأرض والسموات، فأمرهم بإطابة المطعم، وشكر المنعم إن كانوا إياه يعبدون وله يسجدون.

وفي الآية إباحة الطيبات والاستعانة بها على الطاعات بلا مخيلة ولا سَرَف، ولا تعدٍّ ولا ترف، ووجوب الشكر ودوام الذكر.

﴿١٧٣﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر - سبحانه - المحرمات لقلتها، وسكت عن المباحات لكثرتها، فنهاهم عن الميتة التي لم تُذكَّ؛ لأنها لم تزك، والدم لما فيه من ضرر على الجسم، وعن لحم الخنزير لقذارة لحمه وأثره في الأخلاق، وعن كل ما ذُبح للأصنام والأوثان، والأولياء والشيطان، إلا من بلغت به الحاجة مبلغًا وخاف التلف وأشرف على الموت فيجوز له تناول ما يبقي حياته بشرط ألا يكون طالبًا للحرام مع وجود الحلال، أو متجاوزًا للحد في الأكل بل بقدر الحاجة؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، وإنما أباح الله ذلك؛ لأنه واسع المغفرة يتجاوز عن الذنب بلا عقاب؛ كثير الرحمة يقابل التائب بالثواب.

﴿١٧٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

والذين يخفون ما أنزل الله من الحق فلا يظهرونه، ويكتمونه فلا يعلنونه، من أجل الحطام، ومداهنة للآثام، وخوفًا من الحكام، ولطلب الجاه والمكانة، فجزاؤهم اللعنة والمهانة، فأكلهم الذي أكلوه مقابل العلم الذي كتموه يجعله الله نارًا في بطونهم يوم القيامة جزاء وفاقًا، ولا يكلمهم الله إعراضًا عنهم وإهانة لهم، ولا يطهرهم من دنس الذنوب؛ لأنهم حملوا القبائح والعيوب، ولهم عذابٌ مؤلم موجع.

وفي الآية إثبات صفة الكلام للملك العلام.

﴿١٧٥﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾

هؤلاء الكفار المكذبون باعوا الهدى واشتروا الضلالة لاستيلاء السفه والجهالة عليهم، واختاروا العذاب في النار على مغفرة العزيز الغفار، فما أصبرهم على النار، كيف يستطيعون عذابها وهي لا تُطاق لما فيها من النكال والإحراق.

﴿١٧٦﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾

وهذا العذاب الذي ذاقوه لأنهم كفروا بالكتاب المبين، وكتموا الحق من رب العالمين، فما دام أن الله أنزله بالحق فمن الحق أن للمحسن الثواب، وعلى المسيء العقاب، والذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه من اليهود والنصارى في محادة لله وفي نزاع بينهم واختلاف في قلوبهم؛ لأنهم لما فرقوا كتاب ربهم؛ فرّق الله شملهم وشتت كلمتهم، فهم في بُعد عن الصواب، وهم مستوجبون للعذاب.

﴿١٧٧﴾ ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾

ليست القضية مجرد تَوجُّه إلى جهة من الجهات في المشرق والمغرب، لكن القضية الكبرى والمسألة العظمى هي الإيمان بالله ربًّا وإلهًا، وإخلاص العبودية والاستعداد وإصلاح العمل والإيمان بالملائكة كما أخبر عنهم الوحي، وأنهم عبيد لله مقربون لهم مهمات، وكذلك الإيمان بالكتب السماوية وأنها حق من عند الله، وأن الله أنزلها على رسله،

وأيضًا الإيمان بالمرسلين من رب العالمين، مَنْ ذُكر ومَنْ لم يُذكر، والاعتراف برسالتهم، ومن الإيمان بذل المال مع شدة التعلق بحبه والرغبة فيه، ولكن النفس سَخَتْ به رجاء ثواب الله وخوف عقابه، فبدأ بذي القربى؛ لأنهم أقرب في النفس وألصق بالإنسان، وأعظم صلة، وأعطى اليتامى لفقدهم الولاية، وحرمانهم من الرعاية، فتعاهدهم ببره ووصلهم من خيره، ووصلَ المساكين من المعوزين المحرومين فأطعم جائعهم، وكسى عاريهم، ولمّ شعثهم، ومنحَ ابن السبيل الذي انقطع به الطريق، فلا رفيق، ولا صديق، فأسعد حاله، وأجزل نواله، وأجاب سؤاله، وأكرمَ السائل، وأدخلَ عليه المسرة، ورفعَ عنه المضرة، وواساه من البر، وجبرَ منه الكسر، وفكَّ الأسرى من يد الكفار، وأعطى القريب والمحبوب في الدين من ماله، وأدى الحقوق ففرج كربة المحتاج، وآنس وحشته، وأقام الصلاة حق الإقامة، فأداها على الكمال والتمام، بخضوعها وخشوعها كما شُرعت، وأعطى زكاة ماله فطهر نفسه، وزكى ماله، وواسى إخوانه، وأطاع ربه، وشكر مولاه، ووفّى بالعقود، وصدق في العهود، واحترم كل ميثاق، وبرَّ في كل اتفاق بينه وبين الخالق والخلق، وصبر على الفقر وألمه وشدته فرضي عن ربه، وجعل القناعة في قلبه، وستر الحاجة بالتجمل، والفقر بالتّحمل، فترك التسخط والجزع، والتذمر والهلع، ولزم التقوى والورع، وصبر على ما أصابه من أمراض وبلاء، وفوّض الأمر لرب الأرض والسماء، ولم يشكُ الخالق إلى الخلق وما اعترض على القضاء، بل صبر على الضراء، وسلم الأمر للمدبّر ووكلّ الملك للمالك، وصبر وثبت عند القتال ومصاولة الرجال، فما جزع ولا فر بل ثبت واستقر أملاً في الأجر، فمن اتصف بهذه الصفات، وقام هذه المقامات، فهو المؤمن حقًا، البار صدقًا، وهو المتقي لربه، الفائز ببره وقربه، فالصادق يشمل فاعل الطاعات، والمتقي يعم هاجر المنهيات.

﴿١٧٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

فرض عليكم - أيها المؤمنون - أن تقتلوا القاتل بالمقتول إذا وجب عليه القتل وانتفى المانع، فالحُرُّ يقتل بالحُرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولا تتجاوزوا الحدود فتقتلوا غير القاتل كفعل الجاهلية، أو تهدروا دم الضعيف كفعل الوثنية، بل عليكم بالعدل في الدية والقتل، فمن أسقط حقه في القصاص، ورضي بالدية، فلا يعنف الولي في مطالبته بالمال، ولا يسوف القاتل في دفع الدية إلى من له الحق بل إحسان من الطرفين في الاستقضاء والقضاء، وقد يسَّر الله على الأمة فخفف ورحم، فشرع الدية رحمةً بالقاتل ولطفًا بأهل القتيل إذا وقع الرضا وزال المقتضى، ولكن من أخذ الدية ثم قتل فقد ظلم وجهل، فالله أعدّ له العذاب الأليم على هذا الذنب العظيم.

﴿١٧٩﴾ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

ولكم - أيها المؤمنون - في قتل القاتل حياة لما بقي من الأنفس، فإن الإنسان إذا تيقن أنه سيقتل لو قتل؛ كف عن سفك الدماء، وقَتْلِ الأحياء، فَعَمَّ الأمن في المجتمع، واستقامت حياة الناس، فالنفوس تعصم، والدماء تصان، والأمن يستقر، والمجتمع يسعد، وإنما يفهم سر التشريع وحكمة الباري ومحاسن الدّين من كان سليم العقل نيّر البصيرة طاهر الضمير، وتشريع القصاص من أجل أن يتقي العبد ربه فيكف عن البغي والعدوان، وظلم الإنسان، واستحلال ما حرم الله منه.

﴿١٨٠﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

أوجبنا عليكم - أيها المؤمنون - إذا أشرف أحدكم على الوفاة أن يوصي لوالديه وأقاربه من ميراثه بجزء بحيث لا يضر بالورثة بما لا يزيد على الثلث، فلا يحرم نفسه الأجر، ولا ينسى أقاربه من البر، ولا يجحف بورثته في القسمة وكان ذلك الأمر حقًا واجبًا على من اتقى ربه وأطاعه، ونسخ الحكم بآية الميراث ليعطي كل ذي حقٍ حقه، وتحدّد نوعية القرابة ومقدار الحق ويخرج من لا حق له، فسبحان الملك الحق.

﴿١٨١﴾ ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

فمن غيَّر هذه الوصية أو حرّف في نقلها أو كَتْمها من وصي أو كاتب أو شاهد فذنبها وجرمها على من ارتكب ذلك لا يتعداه؛ لأنه فقد الأمانة، وارتكب الخيانة، وأضاع الحقوق، وحرم المستحق، والله لا تخفى عليه خافية؛ فهو مطلع على النيات، يسمع الأصوات، ويعلم الأعمال والحالات، فويل لمن بدّل. والخسار على مَنْ حرّف وغيّر.

﴿١٨٢﴾ ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ومن تخوَّف أن يميل الموصي في الوصية ولا يعدل، بحيث يميل على الورثة فيجحف في الوصية بالزيادة، فيضرُّ بالميراث ويحرم المُوصَى له من الأقارب فيأثم بإبطال الحق، فلا بأس أن يصلح من يريد الخير فيأمره بالعدل والإحسان بلا ضَرَر ولا ضِرَار، فيوصي بالأرفق للوارث والأحسن للمُوصَى له، والله يغفر للمجتهد خطأه ويثيبه على سعيه؛ لأنه رحيم بعباده.

وفي الآية فضل الإصلاح، وجواز الاجتهاد وأجر المجتهد ومردّ ذلك النية.

﴿١٨٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون، لقد فرض الله عليكم صيام رمضان، كما فرضه على الأمم قبلكم، فامتثلوا كما امتثلوا؛ لأن في صيامه أسباب التقوى لكم، من تنفيذ الأمر، وكسر النفس الأمارة، وتعلُّم الصبر، واجتناب المنهي عنه، ومخالفة الهوى، ومحاربة الشيطان، وعبودية المجاهدة.

﴿١٨٤﴾ ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

والصيام المفروض أيام قلائل، ووقت مقتطع من زمن طويل، ففطركم أطول من صيامكم، وزمن أكلكم أكثر من زمن إمساككم، رحمة بكم، ولطفًا بضعفكم، فأما المريض الذي يشق عليه الصيام، والمسافر الذي فارق المقام، فلهما الفطر نهار رمضان، والقضاء بعده بعدد الأيام، وعلى من يقدر على الصيام لكن بمشقة شديدة وكلفة كالشيخ الكبير والعجوز الهرمة إذا أفطروا عليهم إطعام مسكين عن كل يوم، وصيامكم أفضل من فطركم؛ لأن الصوم خير لكم في الأجر، وتربية النفس على البر، وتلبية الأمر، وتوطين النفس على الصبر، ولو علمتم منافع الصوم وفوائده لصمتم.

﴿١٨٥﴾ ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

هذا الشهر المبارك له شرف عظيم، ومقام كريم، ومناسبة سعيدة، ومنزلة حميدة، ففيه أكرمناكم بنزول القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، هذا القرآن الذي فيه سر سعادتكم ومجدكم وعزتكم ونجاتكم ونصركم وفلاحكم في الدارين، فاشكروا الله على هذه النعمة بصيام هذا الشهر الكريم، وهذا القرآن فيه أدلة واضحة وبراهين جلية من العلم النافع والعمل الصالح وبيان الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، وأخبار الماضي وأنباء المستقبل، وعلى من يدركه الشهر وهو حي صحيح مقيم أن يصومه وجوبًا، فلا عذر له في ترك الصيام، وأما المريض والمسافر فلهم العذر في ترك الصيام حتى يُشْفَى المريض ويقيم المسافر فيقضيان بقدر الأيام، والله سبحانه يريد بنا اليسر؛ ولذلك أباح للمسافر والمريض الفطر، وجعل الصيام شهرًا واحدًا فحسب، ومن النهار إلى الليل فقط، بل كل الشريعة ميسرة سمحة سهلة لا تكليف فيها ولا مشقة ولا حرج؛ لأنه لا يريد بنا العنت والصعوبة والإحراج، بل وضع عنا الآصار والأغلال، ولطف بنا ورحمنا، فله الحمد والشكر، فإذا صام من فاته صيام

رمضان عدة من أيام أخر فقد أكمل العدة، ولا يجوز صيام بعض الشهر للمستطيع، وفطر بعضه، بل يصومه كله إكمالاً وتمامًا، ويُكبِّر الله - سبحانه - عند انقضاء الشهر ورؤية الهلال وانقضاء أيام العيد؛ لأنها أيام فرح واحتفال، وليَشْكُرْ المولى - جل وعلا - على ما أنعم، وتفضل وأكرم، وسدد وألهم، فهو صاحب المواهب، ومسدي العطايا، ومهدي الخيرات.

﴿١٨٦﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

قال بعض الصحابة: يا رسول الله، أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأمر الله - عز وجل- رسوله أن يخبر عباده أنه سميع قريب مجيب، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤالهم، ويكشف كَرْبَهم، ويزيل هَمَّهم، ويذهب غمهم، ويلبي طلبهم، ويعلم أحوالهم، فعلى العبد أن يسأل ولا ييأس، ويطلب ولا يقنط؛ فالجود واسع، والعطاء كثير، والفضل جزيل، وعلى العباد أن يطيعوا ربهم باتباع رسوله ﷺ والعمل بشرعه، ويُصدِّقوا بما أنزل في كتابه، ويتيقنوا بصحة ما جاء به، فالاستجابة عمل، والإيمان اعتقاد، والدعاء قول. فالدين قول وعمل واعتقاد، ومن أطاع الله فقد رشد؛ لأنه أُلْهِم الصواب، ووفق للسداد، وسلك الجادة وخالف الهوى، وجانب الغواية، فثمرة العمل الصالح زيادة في الإيمان، وعاقبة الطاعة زيادة في الهداية.

﴿١٨٧﴾ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

أحل الله لكم بعد التحريم جماعَ نسائكم ليل رمضان؛ لأنهن ستر وغطاء وسكن لكم؛ لأن المرأة تزين زوجها وتستر قبحه، وتعينه على غض بصره، وحفظ فرجه، وسكون قلبه واستقرار نفسه، وتمنعه من الفضيحة مع غيرها بما يعاشرها من الحلال، والرجل لباس لزوجته يجملها ويسترها ويعفها ويحجبها ويمنعها من الحرام بالحلال، فما ألطف العبارة وما أجمل الإشارة، وسبب إباحة الجماع ليل رمضان أن الله علم أن بعض المسلمين كانوا يتعرضون للعقاب بمقارفة الجماع ليلاً يوم كان محرمًا، فأباحه وسامح فيه ورخص رحمةً منه، فالجماع في ليل رمضان مباح بالإجماع، فالله عاد بالتوبة على عباده ولم يؤاخذ بما سلف، فبعد الرخصة أبيح الجماع لطلب الولد والذرية الصالحة وإعفاف النفس وأداء الحق، فعليكم بإحسان النية في الجماع لحصول النسل المبارك، وليس لمجرد اللذة العابرة والشهوة القاصرة، فاللذات بالنيات طاعات، والعادات بالمرادات عبادات، وكلوا واشربوا ليالي الصيام حتى يطلع الفجر بحيث يتبيّن لكم خيط الصبح الأبيض وهو العمود المعترض في السماء من خيط الليل الأسود، ثم أمسكوا عن كل المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن كان معتكفًا في المسجد فلا يقربن زوجته ليلاً أو نهارًا طيلة اعتكافه، لحرمة الزمان والمكان وعبادة الرحمن، فهذه محارم الله وحدوده وأوامره ونواهيه، فلا تتجاوزوها ولا تنتهكوها، والتعبير بالقرب لمنع كل داعٍ يوصل إلى معصية الرب، فالله يبيّن لكم الأحكام لتجتنبوا الحرام، وتتقوا الملك العلام، وتحذروا عذابه، وتخافوا عقابه، وتطلبوا ثوابه.

وفي الآية:- أن من أعظم أسباب التقوى تعلم العلم ومعرفة الأحكام والفقه في الدين.

﴿١٨٨﴾ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ولا يأكل بعضكم أموال بعض بالحرام ورشوة الحكام وأنتم تعلمون بطلان ذلك والنهي عنه، وجاءت هذه الآية بعد آيات الصيام؛ ليدل على أن من امتنع في ذلك الزمن عن الطعام فعليه أن يمتنع في كل زمن عن الحرام، ويحصل ذلك بكسر النفس وتربيتها وتهذيبها، وطريق ذلك هو الصوم؛ لما فيه من تأديب ومصابرة، فلا يجوز أكل أموال الناس

بالإثم والخديعة والغش والتدليس وأنواع البيوع المحرمة، ولا بالعدوان كالغصب والظلم والسرقة وجحد العارية والوديعة ونحوها، فالحمد لله الذي أمر بحفظ النفوس، فحرم قتلها إلا بحق، وحفظ الأموال، فنهى عن أخذها بالباطل، وحفظ الأعراض بحدود وتعزيرات.

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

يسألك الناس عن الحكمة من كون الهلال يبدأ صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا، فأخبرهم أن الله أراد أن يعرِّفهم أوقات العبادة، وأزمان الطاعة من صيام وزكاة وحج وغير ذلك، وليس العمل الصالح أن تدخلوا بيوتكم من خلفها كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكن الطاعة الشرعية لا الجاهلية ولا البدعية هي امتثال أمر الله ودخول المنازل من الأبواب مع هجر المخالفات وترك المنكرات، ففي ذلك الفوز والظفر.

وفي الآية:- أن على المسلم أن يأتي كل أمر من بابه، ويسلك المدخل المناسب سواء في العلم أو العمل؛ ليصل إلى أفضل الثمار وأحسن النتائج.

﴿١٩٠﴾ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

وجاهدوا الكفار لإعلاء كلمة الواحد القهار وليس لأغراض دنيويَّة ودعاوى جاهلية، ولا تقاتلوا إلا من قاتلكم، أما من سالمكم أو عاهدكم فوفَّى فلا تقاتلوه، ولا تعتدوا بقتل من ليس من أهل القتال، كالشيوخ والنساء والأطفال، وقتل من أمنتموه أو أسرتموه أو عاهدتموه، فالله لا يحب العدوان وأهله، والظلم ومرتكبيه، وانظر إلى هذا العدل والميزان من الرحمن حتى مع أعدائه، فما أجلّها من شريعة، وما أعظمه من دين.

﴿١٩١﴾ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

حيث وجدتم الكفار فاقتلوهم في الحل والحرم واطردوهم من دياركم؛ لأنهم قاتلوكم وطردوكم، فأذيقوهم مرارة الحرمان من الأمان والأوطان؛ لأن فتنتهم للمؤمنين وإيذاءهم في الدين وصدهم عن المسجد الحرام ومحاربة الإسلام أشد ضررًا من قتلكم إياهم في الحرم، ولا تبدؤوا قتالهم عند المسجد الحرام لعظيم حرمته وجلالة منزلته حتى يبدؤوكم هم، فإذا حصلت منهم مقاتلة فالبادي أظلم، والانتصار من البغي واجب، فعليكم بكف أذاهم وسل السيف عليهم، فهذا جزاء كل مجرم وباغٍ؛ ليُحمى الدين وتُصان الملّة، وتُحمى الشريعة، ويعلو الحق.

﴿١٩٢﴾ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فإن تركوا قتال المسلمين واعتنقوا الدين، فلا تتعرضوا لهم بالقتال، لتغير الحال، والله يتوب على من تاب، ويقبل من أناب، وفيه مسالمة من سالم وعدم التعرض له.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وقاتلوا من حارب الإسلام وعبد الأصنام، حتى لا يبقى لهم شوكة ولا دولة، ولا قوة ولا صولة، فيستمر منهم الإيذاء ويعظم البلاء، فالحق قد لا يحفظ إلا بجلاد، والإسلام قد لا ينصر إلا بجهاد، فإن انتهوا عن الشرك وتركوا القتال والفتك، فمن قاتلهم بعد ذلك فقد اعتدى ولا عدوان إلا على الظالم، وليس على المسلم، وفيه موادعة من وادعنا والوفاء بعهد من عاهدنا.

﴿١٩٤﴾ ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

وإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام مثلاً بمثل وسواء بسواء، ومن ارتكب محرَّمًا عُوقب بمثله؛ فمن قتل قُتل، ومن جرح جُرح، ومن سلب مالاً أُخذ من ماله مثله؛ لأن هذا هو العدل مثلاً بمثل؛ لأن من اعتدى عليكم لا يكفُّه إلا أن تعاملوه بالمثل لحسم شره ودفع ضره، وراقبوا ربكم في هذا القتال، فلا تبدؤوا أنتم، ولا تقاتلوا من لم يقاتل؛ لأن الله يحب من اتقاه وراعى حدوده وعهوده، وهو معه ينصره ويؤيّده، ويحميه ويسدّده، وهي معية القرب والولاية، والحفظ والرعاية.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

أنفقوا أموالكم وابذلوها لنصرة الدين ولإعلاء كلمة الله، فإن لم تفعلوا تَقَوّى الكافر فأهلككم، وتسلط عليكم، فمن ترك الغزو والإنفاق في سبيل الله عرَّض نفسه للهلاك في الدنيا والآخرة، فطريق العلياء التعب، والمشقة سبيل الظفر والفوز، وكم من راحة أعقبت ندمًا، ومن ذلة أوجبت خزيًا، ومَنْ طلب الموت وهبت له الحياة.

وعليكم بتجويد أعمالكم بالإخلاص والمتابعة مع إحسانكم بالبذل والسخاء، فالإحسان في القول السداد، وفي العمل الإتقان، والله يحب من أحسن في عمله.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

ومن شَرَعَ في الحج والعمرة منكم فليكمل عمله ولا يقطعه وليتم نسكه، وأخلصوا لله فيهما، فإن حالَ بينكم وبين الحج والعمرة مرض أو عدو، أو طريق مَخُوف، فتحللوا واذبحوا ما تيسر من الإبل أو البقر والغنم، ولا يجوز لكم التحلل من الإحرام بحلق أو تقصير حتى تذبحوا الهدي إما في الحرم أو حيث أحصرتم، والمحرم الذي يضطر إلى حلق رأسه لمرض في جسمه أو ألم في رأسه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، أو يذبح شاة للفقراء، وإذا لم يكن هناك خوف بل كنتم آمنين ولم تُحصروا عن البيت فإذا اعتمرتم في أشهر الحج ثم حججتم من عامكم فعليكم بذبح شاة شكرًا لله على ما أعطاكم، ولتيسير الحج والعمرة في عام واحد، فالحمد لله على ما حباكم، فإذا لم يجد قيمة الهدي فليصم عشرة أيام ثلاثة منها وهو حاج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، وهذا الهدي على من كان بعيدًا عن الحرم، أما أهل الحرم فليس عليهم دم، وعليكم بتقوى الله في فعل مناسك الحج وترك محذوراته والقيام بالهدي والفدية؛ لأن الله شديد عقابه لمن عصاه، فليحذره سبحانه.

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الحج أشهر معروفة محدّدة وهي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فمن أوجب على نفسه الحج بالدخول فيه فلا يجامع النساء ولا يعصي ربه ولا يخاصم إخوانه، وهذا حكم مع النفس والأهل والناس، ولا يكفي ترك المعاصي بل عليه عمل الطاعات من الكلام الطيب والذكر والصدقة وحسن الخلق؛ فالله يعلم السرائر ويطلع على ما في الضمائر، فيوفي كلاً بعمله، وعليكم بزاد السفر ليعينكم على الحج، ولا تنسوا زاد الآخرة من العمل الصالح فإنه أعظم زاد ليوم المعاد، ويا أهل العقول خافوا عذابي واخشوا عقابي بعمل طاعتي واجتناب معصيتي.

﴿١٩٨﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

وليس عليكم حرج أن تتاجروا في الحج، فالبيع والشراء فيه مباح؛ لأنه موسم للدنيا والآخرة، والرازق هو الله وحده، فاطلبوا الرزق من عنده بفعل الأسباب، فإذا عدتم من عرفات فقفوا عند المشعر الحرام بمزدلفة وأكثروا الذكر والدعاء شكرًا لله على أن هداكم صراطه المستقيم ودينه القويم، لأنكم كنتم قبل هدايته لكم في ضلال وشر حال، فهداكم عن الضلالة، وعلَّمكُم من الجهالة.

﴿١٩٩﴾ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وانزلوا مع الناس من عرفة لا من مزدلفة؛ لأن قريشًا كانت تخص نفسها عن الناس بمزدلفة، وعليكم بالاستغفار؛ لأنه لا يخلو العمل من تقصير ليزول عنكم عجب الطاعة ويجبر كسر التقصير، فالله يغفر الذنب بستره، ويرحم عبده لضعفه وفقره، فهو كثير الغفران، رحيم رحمن.

﴿٢٠٠﴾ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

فإذا أكملتم مناسك الحج فعليكم بذكر ربكم كثيرًا مثلما كنتم تذكرون مفاخر آبائكم وتمدحونهم، فالله أحق بالمدح، فأكثروا ذكره بمحامده، فهو أحق من ذُكر وأولى من شُكر، والناس منهم من همه الدنيا فحسب، يسعى إليها، ويطمع في غناها وجاهها ومتاعها الفاني ومجدها الزائل، وهذا ليس له في الآخرة حظ عند ربه من النعيم، ولا قسم له من الأجر الكريم؛ لأنه باع آخرته بدنياه.

﴿٢٠١﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

ومنهم - وهم الأفضل - فريق طلبوا من ربهم خير الدارين؛ صحةً في الدنيا، وعافيةً وسترًا، ومجداً ونصرا، وغنىً وذخرًا، وسألوا في الآخرة الفوز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، مع الوقاية من النار وغضب الجبار.

﴿٢٠٢﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وهؤلاء فائزون أبرار، سعداء أخيار، فهم أحسنوا فيما سألوا، وأجادوا فيما أقلّوا، فلهم قسط وافر من الأجر، وقسم عظيم من الثواب، من قرة العين وبهجة النفس والأمان في جوار الرحمن؛ لأن الله سوف يقيم القيامة للمجازاة فينال كل جزاءه؛ لأنه سريع الحساب، يحاسب العدد الكثير في الزمن القصير، وهو عليه يسير.

﴿٢٠٣﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وأكثروا ذكر ربكم في أيام الحج فإنها أيام معدودات تمر سريعًا، فاغتنموها، فمن استعجل منكم الخروج من منى بعد يومي الحادي عشر والثاني عشر من عيد الأضحى فمباح له ذلك ولا حرج عليه، ومن تأخر أكمل الثالث عشر فهو خير، وذلك الحكم وهو التأجل والتعجّل هو لمن اتقى ربّه وخاف وعيده، وعليكم بالخوف من الله ومراقبته وحفظ حدوده وتيقنوا أنكم تُجْمَعون عند ربكم للحساب، وإنما ذكر حشر الناس؛ لأن اجتماع الناس في الحج يذكر باجتماعهم عند ربهم للجزاء.

﴿٢٠٤﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾

ولما ذكر الأخيار البررة أتى لذكر الفسقة الفجرة، فأخبر أن منهم من يملك نفسك بفصاحته، ويبهج قلبك ببلاغته، لكنه كذاب فاجر، منافق غادر، وزيادة في نفاقه وإمعانًا فيه يعلن أن الله شاهد على ما في قلبه من الحب له ولدينه ورسوله، وهو أشد الأعداء الألداء محاربةً للدين وعداوةً للمسلمين، وذلك شأن كل منافق على مر العصور.

﴿٢٠٥﴾ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾

وإذا خرج من المجلس أو تولّى أمرًا من أمور الناس سعى في الإفساد وزرع الفتنة بين العباد التي تؤدي إلى إتلاف الزرع وقتل الأنفس وخراب الديار، والله يبغض كل مفسد شرير، وكل خبيث حقير، ويبغض الإفساد في الدين والدنيا؛ لأنه أمر بالإصلاح والعمار.

﴿٢٠٦﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾

إذا نُصح هذا المنافق أن يخاف الله حمله الكبر على زيادة الإثم والجرم عنادًا واستخفافًا، فليس له إلا نار جهنم تشويه، وهي كافية في التنكيل به خالدًا فيها، ولبئس القرار لمن أغضب الجبار.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

أما صنف من الناس فمختلف عن هؤلاء المنافقين، فهم البررة الأخيار، من يبيع نفسه وماله لنصرة دينه، ويشتري رضوان الله وجنته، كما فعل صهيب الرومي الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أعطى المشركين كل ما يملك وهاجر مع الرسول ﷺ إلى المدينة، والذي وفق هؤلاء لهذا العمل الجميل هو الله الجليل؛ لأنه رؤوف بعباده يدلهم على المسار من ألطف الطرق، ويجنبهم المضار بأحسن الحيل، ومن رأفته بهم توفيقهم لمرضاته.

﴿٢٠٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

أيها المؤمنون: ادخلوا في الإسلام واقبلوه بكل شرائعه وأحكامه وسننه، ولا تجزئوه فتأخذوا بعضه وتتركوا بعضه، وإياكم ومسالك الشيطان القبيحة وطرقه الخبيثة فابتعدوا عنها، فإن الشيطان عدو لكم يسعى فيما يضركم ويبعدكم عما يسركم، قد بانت عداوته وانكشف أمره، والعدو لا يُوَافق ولا يُرَافق.

﴿٢٠٩﴾ ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

فإن آثرتم الضلال على الهدى وانحرفتم عن الحق بعدما ظهر لكم البرهان وسطع البيان، على صدق الرسول وصحة الرسالة فاعلموا أن الله عزيز ينتقم ممن عصاه، حكيم لا يوقع العقاب بغير أهله، ومن عزته أنه قهر ما سواه، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضاه.

﴿٢١٠﴾ ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

وهل ينتظر هؤلاء المكذبون إلا يومًا يأتي فيه الواحد الأحد لفصل القضاء يوم الجزاء في ظلل رهيبة كثيفة من الغمام معه الملائكة الكرام، حينها قضي الأمر فلا توبة لتائب ولا عذر لمعتذر، ولا ينفع الكافر ندم ولا أسف، وإلى الله تعود مصائر الخلائق، وإليه تنتهي أعمال الجميع فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وإتيان الله يوم القيامة يحمل على حقيقته وظاهره بما يليق به سبحانه.

﴿٢١١﴾ ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

يا أيها الرسول: سل اليهود توبيخًا لهم وتقريعًا كم آتيناهم من معجزة باهرة، ومن آية متظاهرة، كنتق الجبل، وفَلْقِ الصخر والبحر، والعصا واليد، فكذبوا ونسوا وأعرضوا وعصوا، فمن يغير آيات الله بالكفر والتبديل، والتحريف

والتعطيل بعدما قامت عليه الحجة، ووضحت له المحجة، فإنه قوي الأخذ شديد البطش، عظيم العذاب لكل من عصاه، وخالف أمره واتبع هواه.

﴿٢١٢﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

حُسِّنت الدنيا في عيون الكافرين فأحبوها وقدموها على الآخرة ورضوا بها وعملوا من أجلها، وسخروا من المؤمنين لتقديم الآخرة الباقية على الدنيا الفانية؛ لأن لسان الكافر يقول: خذ ما تراه لا ما تسمع به، ولكن النتيجة أن من اتقى ربه وأطاع مولاه فهو في المنازل العالية والدرجات الرفيعة والعيشة الهنيئة، أما الكفار الفجار ففي درك النار وبئس القرار، والرزق ليس علامة قبول العبد، فإن الله يرزق من يشاء مسلمًا أو كافرًا؛ لحكمة قدّرها ولمصلحة علمها، فلا يظن من زوي عنه الرزق أنه لكره الله له، ولا يظن من وسع عليه أنه لحب الله له، فقد يرزق الكافر ويحرم المؤمن قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾، قال الله مجيبًا عن الاثنين: ﴿كَلاَّ﴾ أي لا الأول رزقناه لمحبتنا له، ولا الثاني قدرنا عليه في رزقه لهوانه عندنا.

﴿٢١٣﴾ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

كان الناس قبل إشراكهم بربهم على فطرة التوحيد، ثم أغواهم الشيطان للإشراك بالله، فأرسل الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويبشرون الطائع بالثواب والعاصي بالعقاب، ولما أرسل الله الرسل أنزل معهم الكتب فيها البيان الشافي لأمور الدين؛ ليتحاكم إليه الناس وقت الاختلاف، ولم يخالف في القرآن إلا اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الأدلة الصحيحة على صدقه حسدًا وبغيًا، فاختار الله للهداية عباده المؤمنين، فاتبعوا القرآن الذي كَذَّبَ به أهل الكتاب، وهذه الهداية توفيق منه - تعالى - لعباده المؤمنين للصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم المبعد عن نار الجحيم.

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن دخول الجنة سهل دون ابتلاء واختبار، فما نجا من نجا قبلكم إلا بعد شدائد وأهوال من الجهاد والتضحية والمصائب، فقد ابتلاهم الله بالفقر فصبروا، وبالمرض فشكروا، ونزلت عليهم أهوال ومحن، فثبتوا إلى درجة أن الرسول وأتباعه منهم يقولون من شدة الخطب وهول الكرب: متى الفرج بعد الشدة؟ ومتى النصر بعد الذلة؟ فيا أيها المؤمنون: نصر الله قريب، وفرجه آتٍ، وفتحه حاصل، فلا تيأسوا من النصر، وعليكم بالصبر.

﴿٢١٥﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

يستفتيك المؤمنون -أيها الرسول- ماذا يتصدقون؟ وعلى من يتصدقون؟ فقل لهم: أي صدقة منكم قلّت أو كثرت فالأولى بها القريب، ثم اليتيم، ثم الفقير. ثم الغريب المنقطع، واعلموا أن فعلكم للخير قليلاً أو كثيرًا محفوظٌ لكم عند الله، والله عالم به محصيه لكم، ويعلم المخلص فيه من المرائي، وسوف يُوفَّى كلٌّ بعمله.

﴿٢١٦﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فرض عليكم جهاد الكفار أيها المؤمنون، والنفوس تكره القتال لما فيه من مشقة وألم ومخاطرة بالنفس والمال، ولكن كم من مكروه عاقبته محمودة، فالجهاد على مشقته له ثمار من العزة والكرامة والنصر والغنيمة والشهادة في سبيل الله، ويمكن أن تحبوا أمرًا من أمور الدنيا من الشهوات ومطالب النفس وترك الجهاد، فيثمر لكم الهوان والذل والخزي والعار وغضب الجبار، فكم من أمر كرهته النفوس وهو الفوز والرفعة والفلاح، وكم من شيء أحبته النفوس وهو الهلاك والخسارة والبوار، لأن العبد لا يعلم سر المسألة، ولا عاقبة الأمر ولا الحكمة الخفية؛ وإنما يعلمها علام الغيوب، فارضَ بقضائه، وسلم لاختياره، وافرح بتدبيره ففيه الحكمة والمصلحة.

﴿٢١٧﴾ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يسألك الناس - يا محمد - عن القتال في الشهر الحرام أيَحلُّ أم يَحْرُمُ؟ فأجبهم بأن القتال فيه محرمٌ وإثمه عظيمٌ وجرمه شنيعٌ، فلا تقاتلوا فيه من لم يقاتلكم، ولكن مَنْعُ الناس من الإسلام ودعوتهم للكفر بالله وتدنيس المسجد الحرام وطرد الرسول والصحابة من مكة أعظم ذنبًا وأكثر إثمًا من قتلكم للكفار في الشهر الحرام، فإن كان قتلكم لهم في هذا الشهر عظيمًا فأعظم منه ما فعلوه بكم وبدين الله ورسوله وبيته؛ لأن رد المسلم عن دينه أعظم إثمًا من قتلكم لهم، وسوف يستمر الكفار يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن الإسلام بما استطاعوا من جهد، فمن يترك دينه ويرغب في الكفر ويستمر على ذلك حتى الموت ضيّع الله سعيه. وأبطل أجره وأحبط عمله وخلّده في النار.

﴿٢١٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين مستحقون لرحمة الله، وسوف يحصلون على ما أملوا، ويجدون ثمرة ما عملوا، فبإيمانهم أرضوا القهار، وبهجرتهم فارقوا الدار وبجهادهم قاتلوا الكفار، فاستحقوا رحمة الغفار؛ لأنه واسع العطاء يتجاوز عن الأخطاء.

﴿٢١٩﴾ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يستفتونك -يا محمد- عن حكم شرب الخمر ولعب القمار، قل: فيهما ذنب كبير وضرر كثير، ولو أن فيهما ربحًا ماديًا قليلاً ولكنه لا يساوي ما فيهما من شَرٍّ خطر، وإثم عظيم، فإثم من شرب المسكر ولعب القمار يشمل ذهاب العقل وقد يصل إلى إزهاق الروح، وسفك الدم، وخراب البيوت، وذهاب الأسر، وهتك الأعراض وغيرها.

ويستفتونك - أيضًا - ماذا يتصدقون؟ وماذا يمسكون من أموالهم؟ فقل لهم: أنفقوا الميسور وتصدقوا بما زاد عن حاجتكم، فكما هداكم الله فقد وضّح لكم ما يحل و ما يحرم، وما يجوز وما لا يجوز، وما ينفع وما يضر، فتدبروا أموركم، وتفقّهوا في دينكم لتسعدوا وتفلحوا.

﴿٢٢٠﴾ ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

بيّن الله لكم الآيات لتتفكروا في مسائل الدنيا والآخرة وتختاروا الأجمل والأكمل وتنظروا في حال الدنيا وفنائها، وزوال أبنائها، ونعيم الآخرة وبقائها وحسن بهائها.

ويستفتونك في مخالطة اليتامى والأكل من أموالهم، فأجبهم أن من خالطهم وأصلح وسدد وقارب ونصح لهم فهو أحسن ممن اجتنبهم، وإن جمعتم مالكم مع مالهم ليعظم الربح وتقل الخسارة وقامت بينكم شراكة للمنفعة فأنتم إخوان في الدّين، بعضكم ولي بعض، ينصح له ويحرص عليه، والله يطلع على من أراد الفساد وسعى إليه ممن اجتهد في الخير واتقى ربه في حال الشراكة والخلطة مع اليتامى، ولو أراد الله أن يعسِّر عليكم لحرم عليكم مخالطة اليتامى، ولكنه سهّل عليكم ولم يكلفكم ما لا تطيقون؛ لأنه عزيز يحكم ما أراد بقوة ونفاذ، حكيم يقضي بما فيه حكمة ويقدر ما فيه رحمة.

﴿٢٢١﴾ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

لا تتزوجوا المشركات حتى يُسلِمن، فإن الجارية المملوكة المسلمة أفضل من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمال المشركة، فجمال الباطن أحسن وأفضل من جمال الظاهر، ولا تُزوِّجوا بناتكم من المشركين حتى يُسلِموا، فإن المملوك الرقيق المسلم أفضل من المشرك ولو أعجبتك صورته أو أقواله، فالمسلم أبر وأطهر وأكرم؛ لأن هؤلاء المشركين دعاة إلى الكفر الموصل إلى نار جهنم، والله يدلّكم على ما يسعدكم في الدنيا ويوصلكم إلى الفوز بجنته في الآخرة، فهو الذي يقبل الحسنات ويتجاوز عن السيئات، ومن اهتدى فبتوفيقه له، والله يوضح الأدلة لعباده، ويقيم البراهين للخلق لكي يبصروا الهدى من الضلال والحق من الباطل، فيختاروا الأحسن والأصوب.

﴿٢٢٢﴾ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

ويستفتونك -يا محمد- عن جماع الحائض أحلال أم حرام؟ فقل لهم: هو حرام؛ لأن دم الحيض مستقذر مؤذ، فابتعدوا عن جماع الحائض حتى تطهر، فإذا طهرت من الحيض وتطهرت بالماء فجامعوها في الفرج؛ لأنه المأذون فيه شرعًا، فهو - سبحانه - يحب التائب من الأوزار، والمتطهر من الأقذار؛ لأن الذنب دنس على النفس، والقذر رجس على الجسم ونجس، فطهارة الأرواح والأجسام بترك الأقذار والآثام.

﴿٢٢٣﴾ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

زوجاتكم موضع إنجاب أولادكم فجامعوهن على أي هيئة بحيث يكون الجماع في القبل، واحرصوا على فعل الخير لأنفسكم في الآخرة ولو في الجماع بحسن النية في الذريّة وإعفاف النفس، والمرأة لا لمجرد الشهوة البهيمية، وعليكم بتقوى الله في اجتناب ما نهاكم عنه مثل: جماع الحائض والجماع في الدبر، وتيقنوا أنكم سوف تلقون ربكم يوم العرض الأكبر ليحاسبكم على أعمالكم، فلا تلقوه بما تفتضحون به، فالبشرى لمن آمن بجنات ونهر وحسن مستقر، وما أجمل ربط الأحكام بتقوى الملك العلام.

﴿٢٢٤﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجعلوا الحَلِفَ بالله سببًا لمنع الخير كأن تحلف ألا تفعل خيرًا، فإن طُلب منك أن تفعله قلت: قد حلفت بالله فلن أترك يميني فكأن الله مانع لك من فعل الخير، بل كفِّر وافعل الخير من عمل طاعة واجتناب معصية وإصلاح بين المتخاصمين؛ لأن الله يسمع الأقوال، ويعلم الأعمال، ويطلع على الأحوال، فهو أحق أن يُتقى ويخاف.

﴿٢٢٥﴾ ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

لا يعاقبكم الله بما يجري على اللسان من أيمان دون نية منكم، كقولكم: لا والله، وبلى والله، وإنما العقاب على من قصد الكذب؛ لأن الأعمال بالنيات، والله كثير العفو عظيم التجاوز واسع الرحمة يتوب على من تاب ويقبل من أناب ويتجاوز عن المسيء.

﴿٢٢٦﴾ ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

من حلف ألا يجامع زوجته هجرًا لها وإضرارًا بها فله مدة أربعة أشهر ليراجع نفسه ويتوب إلى ربه من إيذاء زوجته، والله يغفر له إذا عاد، ويسامحه إذا كفّر ورجع إلى زوجته، وانظر إلى لطف الله بالمرأة ورحمته بها.

﴿٢٢٧﴾ ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لكن لو استمر الزوج على حلفه وهجر زوجته فعليه أن يطلقها لرفع الضرر عنها، أو طَلَّقَها الوالي فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على الألفة وحسن العشرة، فإذا لم توجد انتهى الغرض، والله يسمع كل قول ونجوى، ويعلم السر وأخفى، فحق على العبد أن يخشاه.

﴿٢٢٨﴾ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والمرأة المطلقة تنتظر ثلاث حيَض من بعد طلاقها استبراءً للرحم، وهي عدتها إذا دخل بها زوجها، ثم يجوز لها بعد الحيض الثلاث أن تتزوج، ولا يجوز لها أن تخفي الحمل وتجحده لئلا تعود إلى زوجها، وحبًّا في الفراق وإنهاء للعدة، هذا إذا كانت تخاف ربها وتخشاه وتحذر الحساب بين يديه يوم العرض الأكبر، فلن يمتثل الأحكام الشرعية إلا المتقي ولا يخالفها إلا شقي، وللزوج الحق في إرجاع الزوجة ما لم تنته العدة؛ لأنها ما زالت تحت عصمته وفي ولايته، إن كان يريد حسن العشرة معها وعدم إدخال المشقة عليها، وللزوجة من الحق كحسن العشرة والرحمة بها والنفقة عليها مثل ما للزوج عليها من لطيف المعاملة وطيب العشرة وعدم الخيانة، وللأزواج على الزوجات ميزة وخاصيّة بسبب الإنفاق والولاية والقوامة مع حسن المعاشرة، ولا يقتضي هذا أن يكون خيرًا منها، فالفضل للتقوى، والله عزيز ينتقم ممن تعدى حدوده من الزوجين وغيرهما، حكيم يضع كل شيء بحكمة في موضعه، ومن ذلك أحكام الزوجية.

﴿٢٢٩﴾ ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

الطلاق الصحيح الذي يحل للرجل به مراجعة زوجته طلقتان، واحدة بعد الأخرى، فإما أن يراجعها بمعروف، وإما أن يطلقها بلا ظلم ولا عدوان، وبعد أن تصير منه بائنًا لا حق له في المراجعة، فالمراجعة لحسن العشرة، والفراق مع أداء الحق، ولا يجوز للرجل أن يأخذ من مهر زوجته شيئًا إذا فارقها إلا بالخلع إذا تأكدتم أنه لا يمكن الصلح، وأن يقع الضرر كظلم الزوج وسوء معاشرة الزوجة، فيجوز الخلع على شيء من المهر، فإن تيقنتم أنه لا يمكن توافق الزوجين وانتفت المصلحة من المراجعة جاز للمرأة أن تفتدي نفسها من زوجها ببعض مهرها ليفارقها لتحققِ الضرر من الرجوع إليه، وهذه المسائل فيما شرعه الله وسنّه فاحذروا تجاوزها والتساهل بها ومخالفتها؛ لأن من عصى الله بارتكابه المحذور فقد أغضب ربه، وظلم نفسه، وتجاوز الحد، ووقع في الحرام؛ وهذا ظلم.

﴿٢٣٠﴾ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

فإن طلقها الطلقة الثالثة بانت منه وحرمت عليه حتى تتزوج زوجًا آخر ويجامعها، لا على وجه الحيلة والتحليل، وهذا تعزير له وتأنيب وردع له وتأديب، لئلا يتلاعب بالطلاق ويعبث بالرجعة والفراق، فإن طلقها زوجها الثاني واعتدَّت جاز لزوجها الأول أن يتزوجها بعقد جديد، ومهر آخر إذا علم الزوج والزوجة أنهما سيقومان بأوامر الله ويجتنبان

نواهيه، والله إنما يوضح الأحكام لأهل البصائر وأصحاب الأفهام الصحيحة الذين يفقهون في الدين، أما المعرضون الجهال فلا فهم لديهم ولا بصيرة.

﴿٢٣١﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

وإذا طلقتم النساء دون الثلاث وهن في الرجعة، فراجعوهن إذا أردتم قبل انقضاء العدة دون أن تسيئوا عشرتهن، بل عاشروهن برحمة ولطف، أو تمهلوا حتى تنقضي عدتهن ليصبحن بائنات مع متاع حسن وعدم ذكرهن بالسوء، ولا تراجعوا النساء من أجل الانتقام والإساءة حتى تبذل المرأة مهرها لتفتدي نفسها، ومن يراجعها ليؤذيها أو ليأخذ من مهرها فقد جار وتعدى وظلم، والله له بالمرصاد، ولا تتلاعبوا -أيها الناس- بأحكام الله فتأخذوا ما تريدون وتتركوا ما تريدون تشهّيًا، وتذكَّروا فضل الله عليكم بالقرآن وبمحمد ﷺ لتتعلموا ما ينفعكم، وكنتم قبله جهلاء ضلالاً، فهذا الوحي لهدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه فلاحكم وفوزكم، فخافوا ربكم وأطيعوا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ لأنه -سبحانه- عليم بالأعمال مطلع على الأحوال لا تخفى عليه خافية وسوف يحاسبكم عن القليل والكثير.

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

وإذا طلق الأزواج زوجاتهم ثم انقضت العدة ورغب الرجل أن يراجع المرأة برضىً منهما واختيار فعلى الولي أن لا يمنع ذلك؛ لأن المرأة سوف تُحرَم الحياة الزوجية بمنع الولي، وهذا هو التزام أمر الله واتباع شرعه إنما يفعله من رضي بالله ربًّا وخاف لقاءه، وخشي عقوبته، وهذا العمل من المراجعة بالمعروف، واتقاء الزوجين لله وعدم منع الولي، أزكى للقلوب لبعدها عن الآثام، وأطهر للأجسام لاجتنابها الحرام؛ لأنها فعلت المأمور وتركت المحذور؛ لأن الله أعلم بمصالح العباد، وما فيه خيرهم وعواقب أمورهم وأسرار أحوالهم ما لا يعلمونه؛ لأنهم بشر استولى عليهم النقص وغلب عليهم الضعف ولزمتهم الغفلة.

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

على الأمهات أن يرضعن أولادهن سنتين كاملتين إذا أراد الوالدان ذلك برضا واختيار، وإنما ذكر الوالدات للاستعطاف وعدم إهمال الطفل والاستخفاف به، ووالد الطفل تلزمه نفقة والدة طفله وكسوتها بما هو معروف بلا تبذير ولا تقتير، بقدر حالة الغني والفقير، وقال: وعلى المولود له ولم يقل الوالد؛ لأن الطفل ينسب إليه لا إلى أمه، ولا يجوز أن يقع الضرر على هذا الطفل بسبب الفراق، فلا ترضعه أمه نكاية في أبيه، أو يأخذ الوالد الطفل فيَحرِمه حنان أمه، فيضره ويضرها، والضحية بسبب هذا الشقاق هو الطفل، فحمى الله جانب الطفل، فتبارك الحكيم الرحيم ما أعدله وأرحمه، وأورث الطفل من جد وعم وأخ يقوم مقام الوالد في الإنفاق على والدة الطفل من طعام وسكن إذا مات الوالد، وإذا اتفق والد الطفل ووالدته على فطم الطفل قبل مضي السنتين فلا بأس بذلك بشرط أن يكون عن رضا لا خلاف معه من الطرفين وتشاور في مصلحة الطفل.

وإذا رغب الوالد في مرضعة غير أم الولد ورأى المصلحة في ذلك فلا إثم عليه إذا كانت أم الطفل عاجزة أو رافضة، أو لا تصلح لسبب وجيه، فسلموا أجرة المرضعة بلا نقص ولا مطل، بل أجرة المثل. وانظر إلى هذا الإنصاف والعدل،

وعلى الجميع أن يتقوا الله، فالوالد عليه ألا يضر بالطفل أو والدته، ولا يبخس المرضعة الأخرى أجرتها، والوالدة لا تضر بطفلها ولا تنتقم من أبيه بترك رضاعته، وعلى المرضعة حسن الرضاعة وجميل معاملة الطفل؛ لأن الله مطلع على كل عمل قائم على كل نفس عالم بكل سر، فخافوه وراقبوه وامتثلوا شرعه.

﴿٢٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

ومن مات منكم وله زوجة أو زوجات فعليهن البقاء في بيوتهن مدة أربعة أشهر وعشر ليالٍ حدادًا على الأزواج، إلا الحامل فعدتها حتى تضع الحمل، لتُحفظَ الأنسابُ، وتُصانَ الأحسابُ، ويُحترمَ حقُّ الزوج، فإذا انتهت العدة جاز لها الزواج ومقدماته من التجمل والتزين إذا كان في حدود الشرع، والله - سبحانه - لا تخفى عليه الخوافي، فيعلم عمل البار والفاجر، وسيجزي كلاً بما فعل فراقبوه رجالاً ونساءً، فإنه محاسبكم.

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَّلِيمٌ﴾

ليس عليكم إثم إذا عرضتم للمرأة المعتدة بالزواج تلميحًا لا تصريحًا يُفهم منه الرغبة في نكاحها، ولا ذنب في إسراركم بهذه الرغبة في نفوسكم لئلا يتوهم الإثم من حب الزواج من المعتدة، فلا تخفوا وعدكم لهن بالنكاح في السر فإنه يعلم السر وأخفى، ولكن لمِّحوا ولا تصرحوا؛ لأنه لا يحق الدخول في مسألة النكاح إلا بعد انتهاء العدة، ولا يحل لكم عقد النكاح إلا بعد انتهاء العدة، واعلموا علم اليقين أن الله مطلع على أسراركم، خبير بنياتكم، عليم بأفعالكم، فاحذروا غضبه واخشوا عقابه، وهو مع قدرته على العقاب وشدة أخذه في العذاب فهو يغفر لمن تاب ويرحم من أناب، فكونوا بين رجاء رحمته وخوف نقمته.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

إذا طلقتم النساء قبل الجماع ولم تُسَمُّوا لهن مهرًا فليس لهن إلا المتعة، وإن سميتم لهن مهرًا ثم طلقتموهن قبل الجماع فلهن نصف المهر، وعند الطلاق متعوهن قبل الفراق؛ ليذهب ما في نفوسهن من عتب، ويزول ما يحصل بعد الطلاق من غضب، والمتعة على قدر الغنى والفقر، يفعل ذاك المتقي المحسن الذي يحب أن يتفضل، وهذه المتعة شيء من المال والمتاع شرعه الله على أهل الكرم ليمحو ما أصاب المطلقة من ندم.

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وإذا كان الطلاق قبل الدخول وقد سمى الزوج لها مهرًا فعليه إذا طلقها أن يدفع لها نصف المهر إلا إذا سامحته المطلقة ولم تطالبه بشيء، أو سامحها الزوج في نصف المهر بعدما دفع لها المهر كله أو سامح وليها إذا تبرع بإرضائها، فالمسامحة هنا من كل الأطراف أحسن؛ لأنها تدل على كرم النفس ولين الطباع وجميل الخُلُق، وهذا أقرب لما يحبه الله، فإنه عفو يحب العفو، كريم يحب أهل الكرم، ولا تتركوا -أيها الأزواج- الإحسان بينكم حتى بعد الفراق من حفظ العهد وكتم السر والصلة بالمعروف بالمال وغيره لمن احتاج إليه منكم، فقبل الفراق كان بينكم معروف وإحسان، فليستمر قدر المستطاع، فالله - سبحانه - يعلم إحسان المحسن، وإساءة المسيء وسوف يوفي كلاً بعمله.

﴿٢٣٨﴾ ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾

حافظوا على الصلوات الخمس في أوقاتها بخشوعها وآدابها ولا تشغلكم الدنيا عنها، فالمحافظة أعظم من مجرد أدائها؛ لأن الصلاة عماد الدين، وقرة عيون الموحدين، وعلامة صدق العابدين، وحافظوا على صلاة العصر؛ لأن الملائكة تشهدها، ثم إنها تقع في وقت تعب بعد عمل وقيلولة وبرد في الشتاء، واخشعوا في صلاتكم وداوموا على طاعة ربكم.

﴿٢٣٩﴾ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾

لا تتركوا الصلاة على أي حال ولو كنتم في حال خوف من الكفار، فصلوا ماشين أو راكبين، فإذا ذهب القتال واستقر الحال فصلوا صلاة وافية الشروط والأركان، مع كثرة ذكر للرحمن، مثلما علمكم ربكم في كتابه وسنة رسوله ﷺ وشكرًا له على هذا العلم. وكنتم قبل الرسالة في ضلالة، وقبل العلم في جهالة.

﴿٢٤٠﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

قبل أن يموت الزوج عليه أن يوصي لزوجته بعد وفاته متاعًا يكفيها لسنة كاملة يشمل النفقة والسكن، ولا تخرج الزوجة من سكنها عدة مدة هذه السنة، وكان هذا عدة المتوفى عنها زوجها ثم نُسخت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، فانظر كيف حفظ الحقوق وسن الحدود - سبحانه - فإذا خرجت الزوجة من منزل زوجها المتوفَّى عنها بعد العدة فلا حرج على الولي أن يأذن لها بالزينة والتجمل والطيب لتخطب في حدود ما شرعه الله؛ لأنه عزَّ فأمر، وحكم فعدل، فمن عزته أوامره ونواهيه، ومن حكمته تنزيله لكل حكم ما يقتضيه.

﴿٢٤١﴾ ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

وللمطلقة على زوجها حق وهو أن يمتعها بقدر استطاعته ليجبر الخاطر ويزيل ما كدرها من فاجعة الطلاق ووحشة الفراق، وهذا يفعله من اتقى ربه وراقب مولاه ففعل ما يرضيه.

﴿٢٤٢﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

وهذه الأحكام بيانها من الله، فهو المشرع - سبحانه - فالحكم لله وحده، فعليه البيان وعلى الرسول البلاغ وعليكم العمل، وقد شرع الشرائع كي تتدبروها وتتفقهوا في أحكامها لتعقلوا الحكمة، فالبيان علم، والتدبر عقل، فجمع هنا بين المنقول والمعقول.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾

ألم تأتك قصة قوم هربوا من أوطانهم، وتركوا ديارهم - وهم كثيرون في عددهم - خشية الموت والموت لا مهرب منه ولا مصد عنه، فإنه يأخذ من استقر ويلحق من فرَّ، فأماتهم الله بكلمة ثم أحياهم بكلمة؛ ليقيم الدليل على أنه الرب القدير الجليل، قيل: إنهم من اليهود كتب عليهم الجهاد فهربوا فأدركهم الموت، ثم بُعثوا، فيا من فرّ من الجهاد، لا مهرب من الموت ولا راد، والله - سبحانه - لم يكلف الناس ما يشق عليهم حتى يفروا من القضاء، فإن شرعه رحمة، وقضاءه حكمة، وعطاءه فضل، وأخذه عدل، وتجاوزه إحسان، لأنه رحيم رحمن، ولكن أكثر الناس لا يشكر ربَّه بامتثال أوامره وهجر نواهيه، فجبِلَّة الجحود في الناس كامنة، وصفة النكران في نفوسهم ساكنة.

﴿٢٤٤﴾ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فلا تكونوا - أيها المؤمنون - كمن فرّ من القتال ورفض الجهاد بل جاهدوا لإعلاء كلمة الله، فلكم النصر والأجر والعزة والشهادة والفوز والفلاح، فالله يعلم من جاهد مخلصًا لربه، ومن قاتل رياءً وسمعة؛ لأنه يسمع الأصوات، ويعلم النيّات، ويطّلع على الخفيّات.

﴿٢٤٥﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أيُّكم السابق لبذل ماله لمرضاة ربه ونصرة دينه، فماله لن يذهب بل هو قرض مضاعف، وحسنات وافرة، الحسنة بعشر إلى سبع مائة إلى ما شاء الله، فالمعطي حقيقة هو الله، وأموالكم من عنده سبحانه؛ لأنه يقلل رزق من يشاء، ويكثر عطاء من يريد لحكمة يعلمها، فمن قلّ رزقه فلينفق على حسبه، ومن كثر فليعط على كثرته، وسوف تعودون إليه يوم القيامة؛ فيثيب الجواد المنفق، ويعاقب البخيل الممسك.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

ألم يَصلْك خبر قوم من اليهود قالوا بعد موت موسى للنبي شمعون: نريد قائدًا يقودنا لنقاتل الكفار معه في سبيل الله، فقال لهم: أخْشى إن أوجب الله عليكم الجهاد عصيتم وتركتم القتال، فلا تتمنوا لقاء العدو، ولا تستعجلوا البلاء، فردّوا عليه، وقالوا: كيف لا نجاهد ونحن مظلومون شُرِّدنا من الوطن، وسلبت أموالنا، وفرّق بيننا وبين أولادنا؛ فنحن نريد الانتقام ممن فعل ذلك. فلما أوجب الله عليهم الجهاد تركوه وخافوا الأعداء وما صبر منهم إلا نفرٌ قليل، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، والله عالم بالظالم منهم الذي نكث ما عاهد الله عليه، ونقض ما التزمه من جهاد في سبيل الله، فلما وقعت الحرب ضعفوا وانهزموا وهذا مخالفة لأمر الله، فهم سألوا ما لم يجب، فلما وجب ما وسعهم إلا الهرب.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن الله قد اختار لكم قائدًا هو طالوت، فاعترضوا وقالوا: كيف تكون القيادة والملك لطالوت؛ وهو فقير والملك يحتاج إلى مال، فبالمال يطوّع الرجال ويُقام القتال، والمال عندنا، فنحن أولى بالملك منه لغنانا وفقره، فردّ عليهم نبيهم وقال: حصل الاختيار من الله وهو أعلم بالحِكَم والمصالح وعواقب الأمور، وطالوت معه سعة علم وقوة جسم، فبالعلم يسوس الناس، وبالجسم يخوض البأس، فصاحب العلم قويّ النفس، وصاحب الجسم قويّ البطش، وهذا أكمل للهيبة والسلطان. والله وحده يُملّك من يشاء من عباده؛ لأنه ملَّك الملوك وهو أعلم بمن يصلح للملك فيختاره، فليس لأحد أن يعترض؛ لأن الله واسع الفضل كثير الإحسان عليم بخفايا الأمور وأسرار القضايا، فهو يهب عن سعة، ويختار عن علم.

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكًا عليكم، أن يحضر الصندوق الذي فيه الطمأنينة من الله لكم، وفيه بقايا آثار موسى وهارون كالعصا والثياب وبعض التوراة، تأتي به الملائكة حتى تضعه بين يدي طالوت إثباتًا لملكه، ونزول التابوت إلى طالوت علامةٌ ظاهرة على اختيار الله له من بينكم إن كنتم تصدقون بآيات الله.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

فلما خرج طالوت من المدينة بالجيش وأصبح في الصحراء لا ظل ولا ماء بل حر ورمضاء؛ ابتلاهم الله بنهر عذبٍ باردٍ وهم في ظمأ شديد؛ ليمتحن صبرهم، وحذّرهم طالوت بأن من شرب من الماء فليس من جنده؛ لأنه لن يصبر، ولن يثبت في المعركة، ومن لم يشرب فهو معه، وأذن لهم بقليل من الماء ملء الكف لكل واحد منهم، فأكثروا من الشرب إلا نفرًا قليلاً صبروا، فلما خرج من النهر هو ومن معه من المؤمنين وشاهدوا جيش العدو دبَّ الخوف في قلوبهم؛ لكثرة الكفار وقالوا: لا نستطيع المواجهة فعددنا قليل وعددهم كثير، فردّ عليهم الصادقون الصابرون: بأن النصر مع الصبر، والطائفة القليلة المؤمنة تغلب الطائفة الكثيرة الكافرة؛ لأن من كان الله معه لن يُغلب، فالله يؤيد من صبر بنصره ويُنزل السكينة على جنده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

ولما التقوا بجيش عدوهم جالوت سألوا الله أن يمدهم بصبر في قلوبهم لئلاَّ يجزعوا، وبثبات أقدامهم لئلاَّ يفروا، وبنصرهم لئلاَّ يُهزموا، فالصبر يدفع الجبن، والثبات يمنع القلق، والنصر يحمي من الخذلان، وطلبوا الغلبة على الكافرين؛ لأن جهادهم من أجل رفع الدين ونصرة رب العالمين.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

فغلب جيش طالوت جيش جالوت بنصر من الله وحده، وقتل داود جالوت، فأعطاه الله كرامة الملك يسوس به الناس، والنبوّة يهدي بها العباد، والعلم يفقّه به الخلق، فالملك صلاح الدنيا، والنبوة صلاح الدّين، والعلم صلاح النفس، ولولا أن الله يدفع شر الكفار بقوة الأبرار لَتَسَلَّطَ الأشرار، وعمّ الفساد في الكون، وخربت الدنيا، ولكن الله لطيفٌ بالبشر، ينصر الحق وأهله على الباطل وحزبه؛ ليبقى الخير ويستقيم أمر الناس، وتعمر الديار وينتشر الصلاح.

﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

هذه الأخبار - يا محمد - صادقة من عند الله أنزلها الله بالحق وحيًا يُتلى عليك؛ لأنك رسول من عند الله كما أرسل الأنبياء قبلك، فما أوحيناه إليك فهو للبلاغ لأنّا أكرمناك بالرسالة.

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

والذي قصصنا عليك أخبارهم من الأنبياء هم رسل من عند الله متفاوتون في الدرجات متباينون في الفضل، منهم من خصّه الله تكريمًا بأن كلّمه كموسى، ومنهم من جعله من أُولي العزم كنوح وإبراهيم، ومنهم من فضّله على الجميع وختم به الكل وهو محمد ﷺ، أما عيسى فقد أعطيناه معجزات باهرة، وعلامات ظاهرة، فهو يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويَشْفِي المرضى بإذن الله، وجعلنا جبريل يعينه ويساعده على مهام الرسالة وتكاليف الدعوة.

ولو أراد الله ما تقاتل الناس بعد ما جاء الأنبياء بالرسالات والدلالات والحكم والعظات، ولكن لما اختلفوا في متابعة المرسلين سلّط المؤمنين على الكافرين لينصر الدين، ولو أراد الله لجمعهم على كلمة واحدة وما حصل بينهم خلاف ولا قتال، ولكن لمصلحة أرادها الله وحكمة علمها، قدّر الخلاف بينهم والقتال؛ ليتميز أولياؤه من أعدائه، ويقوم سوق

الجهاد ويتخذ الشهداء، ويظهر أهل الجنة من أهل النار، فله - سبحانه - الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، حكيم في قضائه، رحيم في بلائه.

﴿٢٥٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من فضل الله في سبيل الله وأنتم على قيد الحياة، قبل أن تسلب منكم الأرواح وتلقون ربكم يوم العرض الأكبر، فلا بيع تُفدى به النفس بالمال، ولا مودة صديق تنفع، ولا شفاعة صاحب تدفع؛ لأن الكافر ظلم نفسه بمحاربة ربه، فلا يقبل منه الفداء ولا مودة الأصدقاء ولا شفاعة الأولياء.

﴿٢٥٥﴾ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

الله وحده لا إله إلا هو المستحق للألوهية، المستأهل للعبودية؛ لأن له الحياة المطلقة الكاملة التامة، وهو دائم باق لا يموت ولا يفنى، قائم على تدبير الخليقة وتصريف الكون، به تقوم حياة كل حي، لا يأخذه النعاس ولا النوم؛ لكمال حياته وقيّوميته؛ لأن النعاس والنوم نقص، والله منزه عن النقص، وهو - سبحانه - يمسك السموات والأرض أن تزولا، فلا ينام وليس بحاجة إلى النوم - جل في علاه - لأنه لا يدركه تعب ولا لغوب، تقدّس علام الغيوب؛ ولأن من نام يموت والله لا يموت، والجن والأنس يموتون، فجميع ما في الكون ملكه تحت تصرفه ومشيئته، مقهورون تحت سلطانه، خاضعون لعظمته، أذلاء لقوته، خائفون من بطشه، فالخلق عبيده والملائكة جنده، ولجلاله وعظيم مهابته وملكه لا يشفع أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع؛ لأنه صاحب الكبرياء، تنزه عن الشركاء، وهو - سبحانه - مطلع على ما يراه البشر في الدنيا وما لا يرونه من أمور الغيبيّات في الآخرة، أحاط بالمنظور والمستور، وعلم الظاهر والباطن، واطلع على السر والجهر، ولا يعلم أحد من علمه - سبحانه - إلا من أطلعه عليه، لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل، ولا ولي صدِّيق، ولا أحد من الجن والإنس؛ لأن علمه واسع محيط شامل، وعلمهم ضيق مقصور محدود؛ لأنه خَلَقَ علْمَهم وعَمَلَهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومن عظمته - سبحانه - أن كرسيّه أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم منه، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في صحراء واسعة لا يعلم سعتها إلا الله، فإذا كانت هذه السموات والأرض باتساعها وعظمتها، والكرسي أعظم وأكبر منها فكيف بعرشه العظيم، فسبحان من استوى على عرشه استواء يليق بجلاله، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا صفاته تشبه الصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والله - سبحانه - لا يثقله حفظ السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، بل يحفظها من كل الآفات، وتدعوه كل المخلوقات بشتى اللغات، ومختلف اللهجات، وتعدد الأصوات، وبجميع الحاجات، فيفيض جوده على كل الكائنات، وهو عليٌّ - سبحانه - علو ذات وقدر وقهر، فهو عالٍ فوق السموات على عرشه، وقدره أعلى قدر؛ لأنه صاحب النهي والأمر، يعلم السر والجهر، وبيده النفع والضر، وقد قهر سواه فلا رب ولا إله إلا إياه، تفرد بالملك وتوحّد بالألوهية واستحق العبوديَّة، فهو العلي العظيم؛ لأن العلو مع العظمة يقتضي قوة الجبروت، وتمام الملكوت، وكمال العزة، ونهاية الجلال والقداسة، وهذه الآية أعظم آية في القرآن، وفيها من المدح والتقديس والتعظيم للملك الكريم، الرحمن الرحيم ما يخترق حجب الضمير إلى شغاف القلب، ويهز أركان الكون بالثناء على الملك الحق المبين.

﴿٢٥٦﴾ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجبروا أحدًا على الدخول في الإسلام، بل عليكم بدعوته بالإقناع وحواره بالتي هي أحسن؛ لأن الأمر بيّن ظاهر، فقد وضح الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر، فمن وحّد الديَّان وكفر بما يعبدون من دونه من إنس وجان

وشيطان وأوثان فقد التزم حبل الإيمان، وعروة الدين قوية لا انقطاع لها؛ لأنها مَوْصُولَةٌ بالله وفيها كل أسباب النجاة، والله مطلع على النيات الخفيات، يسمع الأصوات ويعلم الأحوال والأعمال، فحقه أن يوحّد ويُعبد، وإليه يسعى ويحفد، وله يعظم ويسجد.

﴿٢٥٧﴾ ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

والله وحده ولي المؤمنين يحفظهم ويرعاهم، ويهديهم ويسددهم، ويعزهم وينصرهم، وهو الذي أنقذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأنجاهم من الضلال إلى الهدى، وسلّمهم من مهالك الشبهات وأخطار الشهوات بالآيات البيّنات، ودلهم على أسلم طريق بالرشد والتوفيق، أما الكفار الفجار فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من الهداية إلى الغواية، ويردّونهم من الهدى إلى الرّدى، ويمنعونهم من الإسلام، ويدعونهم إلى عبادة الأصنام، فهؤلاء الكفار خالدون مخلدون في النار فبئس القرار.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ألا تتعجب من النمرود بن كنعان صاحب الكفر والطغيان، فإنه جادل إبراهيم، في الرحمن الرحيم، ولم يعلم أن وجود الله ووحدانيته أمر معلوم، شهدت به الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، وقامت عليه البيّنات بما أوجد من مخلوقات وأقام من آيات، والله – سبحانه – هو الذي أعطى هذا – المخاصم – النمرود الملك فانظر كيف جحد وألحد، فلما دعاه إبراهيم بيّن له أن ربه – جل في علاه – يوجد من العدم ويُنشئ الخلق ثم يميتهم ويفنيهم، فهو خالق الموت والحياة، والوجود والعدم، والبقاء والفناء، لا غيره ولا سواه، فكان جواب هذا الرعديد العنيد، الغبي البليد: وأنا أيضًا أحيي وأميت، فأتى برجلين مسجونين عنده فعفا عن أحدهما وقتل الآخر، وقال: هذا إحياء وإماتة!! فلما عرف إبراهيم جهالة هذا السفيه وتعلقه بالشبه والتمويه، أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع، لا يتعلق فيه المشكِّك فقال إبراهيم: دعنا مما تقول، ولكن هذه الشمس في السماء ظاهرة للعيان جلية للأبصار، كل يوم يأتي بها ربي من جهة المشرق فاجعلها أنت تطلع علينا من المغرب ولو يومًا واحدًا لنصدق كلامك!!! فانقطع الغبي الفاجر، وبُهت الشقي الكافر؛ لأن إبراهيم أفحمه بالحجة وقصم ظهره بالبرهان، وهكذا شأن كل ظالم فاجر لا يهديه الله إلى صواب ولا يوفقه للسداد في الجواب.

﴿٢٥٩﴾ ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أو اعجب من قصة صاحب القرية فإنها تثير العجب، فإن عزيرًا مرَّ بقرية مات أهلها وخرب بناؤها، وذَوَتْ أشجارها فلا حياة فيها لشيء، بعدما كانت عامرةً بسكانها، آهلة بأهلها، فوقف متحيّرًا وتساءل: كيف يعيد الله الحياة لهذه القرية بعد هذا الفناء العظيم والدمار الكبير، فأراد الله أن يريه قدرته على الإحياء فأماته وأمات حماره مدة مئة عام، ثم أحياه بعد الموت وسأله: كم مرَّ عليك وأنت ميت؟ فأجاب: مرَّ عليّ يوم أو بعض يوم؛ لأنه بُعث قبل غياب الشمس فظن أنه اليوم نفسه، قال له ربّه: بل بقيت ميتًا مئة عام، فشاهد طعامك الذي كان معك على الحمار لم يفسد بل هو على حاله تقديرًا منا وحكمة، وانظر إلى حمارك الذي مات وتفتت أوصاله وفنيت أجزاؤه كيف نحييه أمامك عضوًا عضوًا وجزءًا جزءًا، ونركب عظامه بعضها على بعض، ثم نجعل اللحم عليها، ثم ننفخ فيه الروح فهزَّ الحمار رأسه ومشى على رجليه ونهق، فصاح عزير وهو يشاهد ما أذهله وأدهش عقله: أشهد أن الله قادر على كل

شيء، وأنه وحده المحيي والمميت، وأنه وحده المستحق للعبودية المستأهل للألوهية، المتفرد بالربوبية، فلا إله إلا هو ما أعظمه وأجله، فما أعظم هذه البراهين وأوضح هذه الأدلة.

﴿٢٦٠﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

واذكر - يا محمد - سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الأموات، فقال له ربه: أما تصدق يا إبراهيم أنني قادر على إحياء الميت أم أنك في شك؟ فقال إبراهيم: بلى يا رب أنا مصدق أنك قادر على ذلك لكن أريد أن أشاهد الكيفية، فليس الخبر كالمعاينة؛ ليزداد يقيني، فأمره ربّه بأخذ أربعة من أنواع الطيور يضمها إليه، ثم يقطعها ثم يخلط بعضها ببعض، ثم يجعل على كل جبل قطعة من اللحم المختلط، ثم نادِ في الطير تأتِ إليك تسعى بعدما ردّ الله فيها أرواحها، فشاهد بعينه كيف أحيا الله الموتى وتيقن ذلك، واعلم يا إبراهيم أن من أحياها عزيز لا يعجزه شيء، ولا يغالبه أحد ولا يمتنع عليه أمر، حكيم يضع كل أمر موضعه، وكل شيء مكانه بحكمة وحسبان.

﴿٢٦١﴾ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

مثل المتصدقين بأموالهم في الجهاد وسائر أنواع البر وطرق الخير والإحسان كافة، مثل حبة قمح زُرعت في أرض خصبة، فأنبتت الحبة سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فالمجموع سبع مئة حبة وهذا مثل أجر من تصدق، فإن الله يضاعف له الحسنات إلى سبع مئة إلى أضعاف كثيرة، فإذا كانت هذه الأرض المِعْطَاء فكيف برب الأرض والسماء وهو أكرم من أعطى؛ لأنه - سبحانه - يربي الصدقة لصاحبها ويضاعفها بقدر نية المنفق وصدقه؛ لأنه واسع يعطي عن غنىً، عليم بمن يستحق العطاء وبما أسر العبد وأخفى.

﴿٢٦٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء المتصدقون الذين يضاعف لهم الله الثواب يريدون بصدقتهم وجه الله، ولا يلحقون صدقتهم بالمن على السائل فيمتنوا عليه ويجعلونها يدًا لهم عنده يذكرونها له تبكيتًا ويذكرونه بها تفضّلاً عليه، وهذا فيه إذلال للسائل، ولا يلحقون بصدقتهم أذىً للسائل مثل انتهاره واستثقاله وزجره ورفع الصوت عليه ونحو ذلك، بل يحمدون ربهم أن جعلهم مقصودين لا قاصدين، يحتاج إليهم الناس ولا يحتاجون إلى الناس، وهذه نعمة قلَّ من يعرف قدرها، فمن تصدق مخلصًا لوجه الله ولا يمنُّ على السائل ولم يؤذه فأجره عند ربه كبير، وثوابه عظيم، ولا يخاف مما يستقبله من أهوال، فهو آمن لحسن سعيه، ولا يحزن من تبعات ما خلفه من أعمال، فهو ناجٍ لصلاح حاله، وسر السعادة في الأمن من مَخُوفٍ منتظر والسلامة من أمر محزن سبق.

﴿٢٦٣﴾ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾

رد السائل بقول لين، وخطاب جميل، وعفو عما بدر منه، ومسامحة له على ما يحصل منه من إلحاح، أحسن من صدقة مقرونة بسوء أدب المعطي وفظاظته وغلظته على السائل من زجر وانتهار، فقول جميل أحسن من عطاء ثقيل، وخطاب لين أجمل من هبة بإهانة، والله - تعالى - غني عما في أيدي الخلق؛ لأنه واهب الرزق، ولكنه أمر بالعطية ليثيب المعطي وهو حليم على من عصاه لا يعاجل بالأخذ، ولعل في قوله: «غني» تذكيرًا للمعطي أن الله أعطاه، وتذكيرًا للسائل أن يسأل ربه ومولاه، وفي قوله: «حليم» تنبيه للمتصدق أن يحلم على من سأله وإخبار أنه يعفو عما بدر منه إذا استغفر.

﴿٢٦٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

أيها المؤمنون المتصدقون لا تذهبوا أجر صدقتكم على السائل بالمن عليه وإذلاله بالعطية أو الإساءة إليه بكلام غليظ أو فعل فظ، فيذهب وزر ما فعلتم بثواب ما أعطيتم، فيكون فعلكم فعل المنافق في ذهاب الأجر، فإن المرائي لا يريد الله بعمله بل يطلب ثناء الناس والجاه لديهم؛ لأنه لا ينتظر الآخرة فيرجو ثوابها ويخاف عقابها، وإنما قصده الدنيا، فمثل هذا المرائي بنفقته كمثل حجر أملس عليه تراب قليل نزل عليه مطر قوي فأذهب التراب وأبقى الحجر فليس للغيث أثر، فالمنافق أظهر للناس الحسن كالتراب على الحجر، فلما بليت السرائر وانكشفت الخوافي إذا هو مراء، فأذهب الرياء أجره كما أذهب المطر التراب، فبقي محرومًا من الخير والأجر كالصخر لا نفع فيه ولا بركة، فالمنافق لا يجد ثمرة ما أعطى ولا نفع ما قدم؛ لأنه أنفق رياء فذهب عمله هباء، والمنافق كافر بربه في باطنه فكيف يهديه إلى السداد، وكيف يدله على الرشاد؛ لأن الله لا يهدي إلا تقيًّا ولا يرشد الكافر الشقي.

﴿٢٦٥﴾ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

والذين يتصدقون لوجه الله وطلب الثواب من الله وليزدادوا هدى وثباتًا على الإيمان، أو أن نفوسهم المطمئنة تدفعهم إلى الصدقة لثباتها على الحق، فهؤلاء مثلهم كمثل بستان أخضر كثير الشجر طيب التربة حسن الثمر بمكان مرتفع من الأرض، وهو أحسن الأمكنة للزراعة، حيث تضربه الشمس ويباشره الهواء ثم أصابه غيث غزير فأثمر البستان ضعف نتاجه مرتين، فإن لم يباشره الغيث المدرار كفاه الندى الخفيف مع الهواء اللطيف؛ لأن المحل خصب، والمكان مرتفع يداخله الهواء ويباشره الضياء، وهذا مثل المؤمن الصادق في نفقته، يعظم الله صدقته لإخلاصه وصدقه وسخائه وحبه لمرضاة ربه ومسارعته فيما يحبه مولاه، والذي يميز النيات ويعلم السرائر هو الله وحده؛ لأنه بصير بالأعمال مطلع على الأحوال، يعلم المخلص من المرائي.

﴿٢٦٦﴾ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

هل يحب أحدكم أن يكون له بستان مثمر بالنخيل والأعناب، وهما أنفع الأشجار وأبرك الثمار، وفي البستان أنواع الفواكه والخضراوات، وفي البستان نهر عذب سائح جار يتدفق بالماء بلا مشقة ولا تعب، وصاحب البستان شيخ كبير، ضعيف عن الكد والتكسب لعياله الضعفاء وأطفاله الصغار وهو ينتظر ثمر البستان، وفجأة هبت على البستان عاصفة فيها نار ودمار، فاحترق البستان كله وذهب الشجر جميعه، وهذا المثل ذروة الحسن وغاية البهاء ونهاية الإشراق، وهو مثل من عمل عملاً صالحًا ثم أفسده بالرياء وأذهبه بالمعاصي، فلما أتى إلى عمله يوم الفقر الأكبر أحوج ما يكون إليه وجده هباءً منثورًا. وسعيًا باطلاً؛ لفساد نيته وخبث طويته وقبح سريرته، فالله يوضح لنا الأمثال لعلنا نتدبر ونعتبر، فنخاف ونحذر، ونخلص ونتصدق؛ فالرياء يتسلط على عمل الإنسان كما يتسلط الحريق على البستان.

﴿٢٦٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من الحلال الطيب الذي بذلتم الجهد في كسبه من التجارة والعمل، وتصدقوا مما أنبتته الأرض من الحبوب والثمار، ولا تقصدوا الرديء الرخيص فتعطوه الناس، وأنتم لا تقبلونه لرداءته إلا بالمسامحة وغض الطرف عنه، فكيف تتصدقون على غيركم ما لا ترضون لأنفسكم، وفيه معاملة الناس معاملة النفس، واختيار الأجود في الصدقة، وتيقنوا أن الله غني عن صدقاتكم فهي لأنفسكم، وشاكر لمن تصدق منكم، أو غني عمن بخل، حامد لمن أعطى.

﴿٢٦٨﴾ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

عليكم بالصدقة والإنفاق في وجوه الخير، ولا تصدقوا وسوسة الشيطان وأمره لكم بالبخل خوفًا من الفقر، ووعد الله أصدق بغفران ذنوبكم إذا أنفقتم؛ لأن الصدقة تكفّر الذنب، ثم إن الله يخلف عليكم ما أنفقتم، وفي الحديث: «**ما نقصت صَدَقَةٌ من مال، بل تزده بل تزده**»، وانظر كيف قابل وعد الشيطان بالفقر بالوعد بالغنى، وأمره بالفحشاء بالوعد بالمغفرة، فخير الدنيا والآخرة عند الله؛ لأنه واسع الفضل لا تعجزه مسألة السائلين، كثير الإحسان لعموم الناس أجمعين، وهو عليم بمواضع العطاء ومن يستحق الثواب والثناء.

﴿٢٦٩﴾ ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

والله - سبحانه - يعطي الفقه في الدين، والفهم في المسائل، والعمل النافع والبصيرة في الأمور والسداد في القول والعمل من يشاء له الخير من عباده، ومن يختصه بالفضل من خلقه، ومن يعطى هذه المكاسب الربانيّة والمواهب الإلهية، فقد أُعطي الخير الكثير والفضل الوفير والنصيب الكبير. وما يستفيد من الآيات ويتعظ بالأمثال إلا نيّر البصيرة، حيّ القلب، صحيح الفهم، أما مظلم الفؤاد، سفيه الإدراك فلا تذكّر ولا اعتبار، فلا علم نافع ولا عمل صالح.

﴿٢٧٠﴾ ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

وما تصدقتم به لوجه الله، أو ألزمتم أنفسكم به في سبيل الله فالله سوف يثيبكم عليه؛ لأنه عالم به يحفظه لكم ليوفيكم إياه وأنتم أحوج ما تكونون إليه، أما الظالم الذي منع ما أوجب الله عليه من زكاة في ماله ونحوها فلن ينصره أحد غدًا، ولن يمنعه أحد من عذاب الله، ولكل ظالم عاقبة سيئة ومصير وخيم.

﴿٢٧١﴾ ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

إن أعلنتم صدقاتكم بلا رياء ولا سمعة ففعل حسن وتصرف جميل، لعله يقتدي بكم غيركم، وإن أسررتم الصدقة للفقراء فهو أفضل وأبعد عن الرياء والسمعة وأسلم لحال من تصدقتم عليه، والله - سبحانه - سوف يمحو عنكم الذنب بالصدقة؛ لأنها تكفّر الخطيئة، وهو - تعالى - خبير بالخفايا والسرائر، عالم بالنيات، يعلم من عمله ومن أظهره ومن أسرّ قوله ومن أعلنه.

﴿٢٧٢﴾ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

ليس عليك - يا محمد - هداية الناس، إنما عليك البلاغ، أما الموفق للهداية حقيقة فهو الله وحده؛ لأنه يعلم من يستحق الهداية ومن لا يستحق، فهو يصطفي لدينه ويختار كما أراد - تعالى - والذي تتصدقون به من الأموال عائد إليكم بالثواب، فالمنّة لله وحده، فأنتم بصدقاتكم تحسنون إلى أنفسكم، فاقصدوا الله بعملكم واحذروا الرياء والسمعة، واعلموا أن كل نفقة أنفقتموها لوجه الله فهي مضاعفة عند الله، ولن يذهب الله من حسناتكم شيئًا يوم القيامة؛ لأنه عادل لا يظلم ولا يهضم.

﴿٢٧٣﴾ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ۚ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

وتصدقوا على الفقراء الذين منعهم الجهاد في سبيل الله من الكسب لطلب الرزق كالتجارة ونحوها؛ لأنهم حبسوا أنفسهم للغزو، فالذي لا يعرف حقيقتهم يظنهم لتجملهم وعفتهم أغنياء وهم في الحقيقة فقراء، فأنت - أيها

المتصدق - تعرف هؤلاء بعلاماتهم، فأثر الفاقة والفقر لا يخفى على اللبيب، وهم لشدة حيائهم وعفة نفوسهم لا يُلحون في السؤال، واعلم - أيها المتصدق - أن كل شيء تنفقه لوجه الله فهو محفوظ فلا تخف من ضياعه، والله يعلم النيات فيطلع على المخلص في صدقته والمرائي.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء البررة المتصدقون الذين يعطون أموالهم لوجه الله في كل وقت من ليل أو نهار، وفي كل حال علانية وخفية محفوظ أجرهم عند ربهم، وهم مع ذلك لا يخافون ما أمامهم من أهوال العرض الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الحياة الدنيا الفانية، فقد أمَّن الله خوفهم وأذهب حزنهم.

﴿٢٧٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أكَلَةُ الربا حينما يبعثون في قبورهم للحساب يخرجون كالمصروع من مس الجان وتلبس الشيطان، تضطرب حركاتهم وتختل مشيتهم؛ لأن أثر الحرام في بطونهم، والكسب الخبيث في أجسامهم، فالله عاقبهم بهذا العقاب؛ لأنهم لجهلهم وفجورهم قالوا: لا شيء علينا في الربا؛ لأنه مثل البيع تمامًا كلها على وجه العِوض والتراضي؛ عنادًا منهم واستخفافًا، فردّ الله عليهم كذبهم بأن البيع حلال لما فيه من تبادل المصالح وتداول المنافع بلا ضرر ولا غرر، أما الربا فإنه إضرار بالغ بأموال الناس، فأناس يكدحون لجمعه ثم يأتي أناس لسلبه منهم بطريق محرم، وأناس اضطرتهم الحاجة إلى قرض فضوعف عليهم ظلمًا وعدوانًا، فالذي وصل إليه النهي من الله ورسوله ﷺ فتاب من الربا فالله يتجاوز عنه ما كان قبل النهي ومرده إلى ربه يقضي فيه ما شاء، ومن استحل الربا بعد النهي فهو معاند لربه محارب لمولاه، فجزاؤه الخلود في نار جهنم.

﴿٢٧٦﴾ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

والله - سبحانه - يذهب بركة الربا ويجعل عاقبته إلى تلف وخسارة في المال والنفس؛ لأنه بُني على حرام، وبالمقابل يُنَمِّي الله الصدقة ويبارك فيها، فالربا في الظاهر زيادة وهو نقصان، والصدقة في الظاهر تنقص المال وهي تزيده وتنميه، والله يكره المعاند لآياته، المعترض على شرعه، الذي تهتك في الحرمات، وأكثر من المخالفات، وأعرض عن التَّواب، فالكافر تارك للطاعة معرض عن الأمر، والأثيم ساقط في المعاصي مرتكب للنهي.

﴿٢٧٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وبعد ما ذكر العصاة من أهل الربا أتى لذكر الصالحين المفلحين الذين أحسنوا الاعتقاد وجوّدوا العمل فآمنوا وأصلحوا، وحافظوا على صلاتهم كما شرعت، وأحسنوا أداءها، وزكوا أموالهم طيبة بها نفوسهم، فهؤلاء الأبرار لهم الأجر العظيم والثواب الجسيم من ربهم الرحمن الرحيم، ولا يخافون مما ينتظر العصاة أمامهم، ولا يحزنون من تبعة ما خلفوا في الدنيا وراءهم، بل هم في أمن وسرور، وقرة عين وحبور.

﴿٢٧٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون، خافوا الله وراقبوه، واتركوا ما بقي من الربا عند الناس إن كنتم صادقين في التوبة ممتثلين أمر الله طائعين له، فالمؤمن يفعل المأمور ويجتنب المحذور.

﴿٢٧٩﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

فإن أبيتم إلا الربا ولم تتوبوا منه، فانتظروا حربًا من الله ورسوله من الأمراض والكوارث وفساد الذرية والفتن ونقص الفهم، والعذاب في الآخرة، وإن تبتم من الربا فلكم أصول الأموال بلا زيادة، فلا تأخذوا مال الغير ظلمًا ولا تتركوا أصول أموالكم فيلحقكم الضرر.

﴿٢٨٠﴾ ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

إذا أُعْسِر المقترض فأمْهِلُوه حتى ييسّر الله له السداد، وإن أسقطتم بعض حقكم عنه فهذا أجمل وأحسن إذا علمتم أن الله سوف يجازي المحسن بإحسانه فيتجاوز عنه كما تجاوز عن المعسر.

﴿٢٨١﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

خافوا يومًا تعودون إلى ربكم فيه فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، لا ظلم في ذلك اليوم بزيادة سيئات ولا هضم بنقص حسنات.

﴿٢٨٢﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون، إذا كان لكم مال على أحد، أو تبايعتم إلى زمن معلوم فاكتبوا بينكم كتابًا لتحفظوا به الحقوق ولا تقعوا في الخلاف، واختاروا كاتبًا مسلمًا أمينًا عدلاً ضابطًا، وإذا دعي هذا الكاتب فلا يَعْتَذِر بل يحتسب الأجر؛ لأن الله هو الذي علمه الكتابة وعليه أن يكتب الكتاب، والذي يملي عليه نص الوثيقة هو المدِين الذي وجب في ذمته المال؛ ليكون مقرًّا على نفسه بما أملى، ويشهد الشهود بإملائه، وليخف ربه فلا يزوّر في إملائه ولا يبخس في أدائه، فإذا كان من عليه الدين ضعيف العقل أو طفلاً أو هرمًا أو أبكم فوليُّه يقوم مقامه في الإملاء لا يزيد على المدِين ولا ينقص من حق الدائن، وأشهدوا على الوثيقة شاهدين عدلين لضمان الحق، فإن لم يوجد إلا رجل فهذا الرجل يشهد وتشهد معه امرأتان من أهل الديانة والأمانة، وإنما جعل امرأتان مكان رجل لغلبة النسيان على النسوان، فإذا نسيت واحدة ذكرتها الأخرى؛ لأن مسائل المال يغلب على معرفتها الرجال، وإذا لزم الأمر واحتيج إلى شهود فحرام عليهم الامتناع عن أداء شهادتهم لئلا تذهب حقوق الناس، ولا يصيبكم ضجر ولا سأم من كتابة الدين قلَّ أو كثر؛ لأن هذه الكتابة أعدل في الحكم، وتحفظ شهادة الشهود، وأبعد عن الشك في مقدار الدين والأجل، ولئلا يقع اختلاف وخصومة، لكن إذا كانت السلعة حاضرة والثمن نقدًا فليس عليكم إثم في عدم الكتابة، لزوال المقتضي من خوف ضياع المال، ووقوع الجحود من المدين، وأشهدوا على وثائق البيع وبخاصة إذا كان المال كثيرًا والسلعة غالية من عقار ودور وصفقة تجارية أو دخول شركات ومضاربات ونحوه، ولا يلحق صاحب الحق بمن كتب الوثيقة أو شهد عليها ضررًا كأن يكلفه التنقل معه بلا أجرة أو يدعوه في وقت شغله أو راحته فيشق عليه، فإن حصل منك ضرر لكاتب أو شهيد أو مطل بدين أو مخالفة لمقتضى العقد فهذا من العصيان ومخالفة الديان، وإذا راقبتم الله وأطعتموه واجتنبتم معاصيه فتح عليكم بالعلم النافع والفقه في الدين؛ فهو العالم بكل دقيق وجليل، المطلع على كل صغير وكبير، لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه شيء.

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

وإذا سافرتم وتبايعتم ولم تجدوا كاتبًا فليأخذ صاحب الحق من المدين رهنًا ليحفظ به ماله يقوم مقام الوثيقة المكتوبة، فإن وثق صاحب الحق في ذمة المدين وأمانته فلا داعي للرهن، فعلى المدين تقوى الله في حفظ مال الدائن الذي ائتمنه على ماله فليردَّ الدَّين عند تمام الأجل، وإذا طلب منكم الأداء بالشهادة فأدوها كما هي بلا تحريف ولا تبديل ولا كتمان، ومن كتم الشهادة فهو فاجر القلب خاوي الضمير عديم التقوى، والله سوف يحاسب كلاً بما فعل؛ لأنه عالم بالضمائر، مطلع على السرائر، يعلم الأعمال والأقوال والأحوال.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

كل ما في الكون لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا وهو الخالق الرازق الذي يدبرّ الأمر ويصرف الأحوال، وهو وحده القائم بشؤونهم - سبحانه - ومن أظهر سوءًا أو أسره فالله عالم به مطلع عليه؛ لأن الجهر والسر عنده واحد، فيحاسب كلاً بما كسب على قدر ذنبه، يحاسب بعلم ويقضي بعدل.

وله - سبحانه - المشيئة المطلقة، من شاء غفر له ذنبه وتجاوز عن جرمه، ومن شاء أخذه بإثمه وجازاه بعصيانه، لحكمة قضاها ومصلحة قدرها، ففغفرانه فضل وعذابه عدل، نفذت قدرته وغلب أمره، ومضى قضاؤه، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿٢٨٥﴾ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

صدّق محمد وأصحابه وأتباعه بما في القرآن والسنة من وحدانية لله وألوهية له سبحانه، وصدَّقوا بالملائكة والكتب والرسل كافة كما جاء بها الوحي، ولم يصدقوا ببعض الرسل ويكذبوا ببعضهم كما فعل أهل الكتاب بل آمنوا بالجميع، واستجابوا قائلين: يا ربنا سمعنا قولك وأطعنا أمرك، فإذا حصل منا بعد الاجتهاد تقصير فنسألك مغفرة منك تمحو بها الذنب، وتعفو بها عن السيئة؛ لأنا عبيد خطّاؤون، فليس لنا رب سواك، ولا إله غيرك، وسوف تجمعنا ليوم لا ريب فيه، فلا مفرّ إلا إليك، ولا شكوى إلا إليك.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

فلما استجابوا وأنابوا بشّرهم بوضع الآصار والأغلال، فأخبرهم أنه لن يشق عليهم في الأوامر والنواهي بل على قدر جهدهم وطاقتهم رحمة منه بهم، وكل نفس تثاب على قدر صلاحها وتعاقب على قدر سوئها بلا زيادة ولا نقص، وسألوا ربهم قائلين: يا ربنا لا تحاسبنا على نسياننا وخطئنا فنحن بشر مقصرون، ولا تكلفنا ما يشق علينا فنعجز كما فعلت الأمم قبلنا الذين تحملوا الشرائع ثم تركوها، ونسألك أن لا تبتلينا بالمكاره والمصائب فوق قدرتنا فنجزع ولا نصبر، فنحن عبيد ضعفاء، ولا توجب علينا فرائض وحدودًا لا نستطيع القيام بها، وامحُ ذنوبنا وكفّر سيئاتنا. واستر عيوبنا وعد بفضلك علينا، وارحم ضعفنا بعدم مؤاخذتنا، فأنت ربنا ومتولي أمرنا ومدبر شؤوننا ومصرف أحوالنا، والمولى ينصر وليه وأنت مولانا القوي، ونحن عبيدك المساكين الضعفاء، فانصرنا على عدوك وعدونا الذين حاربوك وكذّبوا رسلك وردوا دينك من المشركين وأهل الكتاب المكذبين، فالنصر من عندك يا ربنا يُرتجى، ونحن جندك فلا يُهزم من كنت مولاه، ولا يغلب من أنت نصيره.

مدنية

سورة آل عمران

ترتيبها ٣

آياتها ٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف: الله أعلم بمراده بها ولا شك أنها نزلت لمعانٍ عظيمة، ومقاصد كريمة.

﴿٢﴾ ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

الله المستحق الألوهية الذي لا يجوز أن تصرف العبادة إلا له، فهو واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو الحي الباقي الدائم بعد فناء خلقه حياةً كاملةً لا تشبه حياة المخلوق، وهو القائم على تصريف الخلق وتدبير الكون.

﴿٣﴾ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

نَزَّل عليك القرآن - يا محمد - بالحق القاطع والدليل الساطع والبراهين الباهرة، والحجج المتظاهرة، يصدّق ما سبق من كتب نزلت على الرسل قبلك، وهو سبحانه الذي أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى ليبيّن الحق لبني إسرائيل.

﴿٤﴾ ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

وأنزل - سبحانه - الكتب التي فيها فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال، والذين يجحدون هذه الآيات البينات ويكفرون بربهم ويحاربون رسله جزاؤهم العذاب الشديد الدائم في نار جهنم؛ لأن الله يمحق من عاداه، ويكبت من عصاه؛ لعزته المتناهية ينتقم ممن خالف أمره فيوقع به أشد النكال وأفظع العقاب، لا يقدر على مثله منتقم.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

والله - سبحانه - مطلع على المغيبات، عالم بالخفيات، مما يقع في الأرض قلَّ أو كثر في السر والعلن من تصرفات الناس وغيرهم، ومحيط علمه بما يقع في السماء من الملائكة وغيرهم؛ لأن الكل في ملكه وتحت سلطانه.

﴿٦﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ومن آثار علمه وحكمته وقدرته تركيب صوركم في أرحام أمهاتكم باختلاف اللون والجنس والشكل كما يريد سبحانه، فما دام أن هذا خلقه وتدبيره وقدرته فلا معبود بحق غيره ولا إله إلا هو، فهو العزيز الذي قهر سواه، لا يغالبه مغالب ولا يقهره محارب، حكيم يدبر بلطف ويقضي بحكمة.

﴿٧﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

وهو سبحانه وحده الذي أنزل عليك القرآن - يا محمد - وفيه آيات واضحات صريحات لا لبس فيها ولا غموض، ظاهرة للفهم، معلومة للقارئ، كالأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، وهي أصل هذا القرآن وأكثره، وفي القرآن آيات

أخرى ليست واضحة بل تحتاج إلى تفسير وتأمل وتوقف أحيانًا كالحروف المقطعة في أول السور، فالذين في قلوبهم ريبة وهوى يبحثون في غير الواضح من القرآن ليتعلقوا بشبه، ويؤيدوا باطلهم؛ ليزرعوا الشك في القلوب، ويُحْدِثُوا الخلاف بين الناس، وليفسروه بما يوافق باطلهم، ويزعموا أنه يؤيد ما ذهبوا إليه، كالنصارى الذين استدلوا بقوله - تعالى - عن عيسى: ﴿وروح منه﴾ قالوا: خرج منه، فهو ابنه - تعالى الله عن ذلك - وتركوا المحكم الصريح في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وكذلك كل صاحب بدعة يأخذ من الدليل المحتمل ما يوافق هواه ويؤيّد باطله، والذي يعلم معنى المتشابه حقيقة هو الله وحده؛ لأنه اختص بعلمه كعلم الروح وغيرها، وأهل العلم المتمكنون الغائصون في الحقائق يردون العلم إلى ربهم، ويعترفون بعجزهم أمام هذا المتشابه، ولكنهم يؤمنون به ويعلمون أن له معنى وحقيقة، ويرون أن الجميع من المحكم والمتشابه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهم يعملون بالمحكم ويؤمنون بالمتشابه، والذي يقبل النصح وتنفع فيه الموعظة هو صاحب العقل الفطن والقلب السليم، فهو لفهم عقله يدرك، ولطهارة قلبه يؤمن، فينفعه المعنى ويدرك المقصود ويصل إلى الحق.

٨ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

وعباد الله المؤمنون يسألون ربهم ويقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا لا تصرف قلوبنا عن الحق الذي أرسلت به رسولك بعد أن عَرَّفتنا به وأرشدتنا إليه، وذقنا حلاوته، وعرفنا صحته، وتفضل علينا بلزوم الحق والثبات على الصدق، فمن هديته وعن الباطل صرفته فقد رحمته؛ لأن فضلك لا يحد، وكرمك لا يعد، وعطاؤك لا يرد، تهب لمن لم يطلب ولمن طلب.

٩ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

ويدعون فيقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا أنت سوف تجمع الخليقة ليوم العرض عليك، والقدوم إليك، وهذا اليوم حاصل لا محالة، وواقع لا شك فيه، فأنت لا تخلف ما وعدت وقد وعدت به، فوعدك آت ولقاؤك حاصل، وقولك نافذ.

١٠ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

المكذبون لرسل الله، المشركون بالله، المحاربون له لن تنفعهم هذه الأموال التي يجمعونها ولا هؤلاء الأبناء الذين يربونهم، فلن تمنعهم من عذاب الله، ولن تدفع عنهم غضب الله، وأولئك هم حطب جهنم؛ لفظاعة ما ارتكبوه وشناعة ما فعلوه، فيالسوء المنقلب، وفظاعة المصير.

١١ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

مثل هؤلاء الذين كذبوك كمثل قوم فرعون ومن سبقهم من الأمم الكافرة، كلهم اجتمعوا على جحد ما أنزلناه ومحاربة من أرسلناه، مع أن آياتنا بينات، وحججنا واضحات، لكنهم كذبوا بالصدق، وردّوا الحق، فالله - جل في علاه - لما فعلوا ذلك أخذهم أخذ عزيز مقتدر فنكّل بهم، ونوّع أساليب تدميرهم وعذابهم من إغراق وريح وصاعقة وخسف ومسخ وغير ذلك من أشكال العقوبات وأصناف المثلات؛ لأن أخذه قوي وعذابه أليم.

١٢ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

أخبر - يا محمد - كفار مكة بأنهم سوف يُهزمون في الدنيا ويعذبون في الآخرة؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسوله، فالخزي والعار عليهم في هذه الدار، والعذاب والنكال ينتظرهم في النار وبئس القرار، ففراشهم الجحيم، ولباسهم القطران والحميم.

١٣ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

أما أخذتم يا معشر الكافرين العبرة مما حصل في بدر، يوم اجتمع أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فالمؤمنون ينصرون الرحمن، والمشركون يقاتلون مع الشيطان، والكفار يشاهدون المؤمنين بأبصارهم أكثر منهم مرتين، وليس في المنام ولا

في الأحلام، فالله وحده أعز عبده، ونصر جنده، وهزم المشركين وحده، فانتصر المؤمنون، وشفى الله غيظهم من عدوهم، ووقع القتل والأسر والهزيمة بأعداء الله من كفار قريش، وهذه المعركة فيها أبلغ العظات، وأعظم الحجج البينات على نصر الله أولياءه وإن قلّوا، وسحْق ومحْق أعدائه وإن كثروا، لكن لا يعتبر إلا مستنير القلب سليم الإدراك.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

جُمِّلت الدنيا في عيون الخلق بلذَّاتها وفتنها وشهواتها ابتلاءً وامتحانًا من الله للناس فأحبوها وعشقوها، كفتنة النساء، وهي أعظم فتنة؛ لكثرة الإغراء والإغواء، وحب البنين؛ لأنهم فلذات الأكباد وباقات الفرح والإسعاد، وخزائن المال المحفوظة المقفلة؛ لارتفاع أثمانها وغلاء قيمتها من ذهب وفضة ونحوها، وحبب إليهم الخيول المعلمة بأحسن الألوان وأبهج الأشكال، وهي الغالية الثمينة الفريدة، وكذلك أحبوا الإبل والبقر والغنم؛ لأن فيها المنظر البهي والمطعم الشهي والمركب الوطي، وأحبوا الحبوب والثمار والنبات والأشجار؛ لاختلاف طعومها وتعدد أذواقها وجمال منظرها وكثرة فوائدها، وهذه كلها متاع زائل وزينة ذاهبة؛ لأن الدنيا يفنى نعيمها ويسافر مقيمها، لا بقاء لها ولا قرار، ولا وفاء لها ولا حسن جوار وما هي إلا شرَكَ الردى وقرارة الأكدار، أيام معدودة، وآجال محدودة، وأرزاق مقسومة، لكن النعيم المقيم والفوز العظيم عند الملك الكريم، في دار من دخلها أمن، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ولا عدم ولا سقم ولا هرم، فلا تنخدعوا بفتنة الدنيا عن ذاك المصير، ولا تغتروا بهذه الشهوات عن الفوز الكبير، فخاب - والله - من قدّم الفاني على الباقي، والخسيس الرخيص الذاهب على الثمين الغالي الدائم.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

قل لهم يا محمد: ألا أخبركم بأحسن وأجمل وأفضل من هذه الشهوات واللذائذ الزائلات، أفضل منها - والله - حدائق غناء، وبساتين فيحاء، وأنهار جارية، ونعيم مقيم، وحبور وسرور، وقصور ودور، ونساء طاهرات، من كل دنس ونجس، فيهن حسن وجمال، وعفاف وكمال، مع حلول الرضا والغفران عما مضى، في أمن وسلام، وحسن مقام كل هذا لمن اتقى مولاه، وخشي ربه، فهذا أحسن من دار الفناء ومنزل الشقاء، ودنيا الهم والنكد، والمصائب والكبد، ولكن لا يفوز بنعيم الجنة إلا من صدق مع ربه ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الله بصير بعباده يعلم ما يسرون وما يعلنون، فيجازي كلاً بما صنع، ويحاسب كلاً بما فعل.

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

ومن صفات هؤلاء الفائزين أنهم يدعون ربهم فيقولون: يا ربنا آمنا بك وصدقنا بكتابك واتبعنا رسولك؛ فتجاوز عن زلاتنا، واعف عن خطيئاتنا، ونسألك النجاة من النار دار البوار ومقر الأشرار، فهم أقروا بما لله عليهم، ثم سألوه غفران الذنوب، ثم دعوه أن يصرف عنهم العذاب.

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

وهم صابرون على الطاعة في الشدة والرخاء، صابرون على البأساء والضراء والبلاء ومجاهدة الأعداء، صادقون في النية والأقوال وسائر الأعمال والأحوال، مطيعون دائمون على امتثال الأمر واجتناب النهي، وهم يستغفرون الغفار من الأوزار في الأسحار وقت نوم الناس وراحتهم، وزمن صفاء النفس وإشراقها، وموعد تنزل الكريم المنان إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

﴿١٨﴾ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

شهد الله لنفسه أنه لا إله إلا هو، وأنه لا يستحق العبودية سواه، وأنه واحد أحد، وأقام على الشهادة الدليل من بديع الكائنات وسائر المخلوقات وعظيم الآيات، وشهدت الملائكة المقربون بالوحدانية للأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وشهد العلماء بهذه الشهادة العظيمة، وأقروا بها لفضل ما عندهم من العلم، ويكفيهم شرفًا وفخرًا اختصاصهم من دون الناس بهذه الشهادة، وهذا أعظم دليل على فضل العلم النافع. والله الواحد الأحد، وهو الذي يقيم العدل في الأنفس والآفاق، والآجال والأرزاق، فكل قضائه عدل، وكل حكمه فصل، وكل عطائه فضل، فلا معبود بحق سواه، ولا مستحق للألوهية غيره، لأنه الرب الخالق الرازق المالك. فقد عزّ عن أن يكون له ندٌّ، وجل أن يكون له ضدٌّ، حكيم فيما فعل؛ لأنه خلق بإتقان، وأوجد بإحسان، وأعطى بامتنان، فبعزته قهر ما سواه، وبحكمته أبدع ما نراه.

﴿١٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

الدين الصحيح المقبول عند الله هو دين الإسلام، الذي أتى به رسول الهدى ﷺ، وكل دين غيره باطل مردود، ومن ابتغى سواه فلن يقبل الله سعيه، ولا يرضى عمله، وما اختلف اليهود والنصارى في رسالة محمد ﷺ إلا من بعد ما تحققوا من أنه هو المقصود؛ فجحدوا استكبارًا، وكذبوا عنادًا، وأعرضوا بغيًا وحسدًا، ومن يكذب بآيات الله ورسله فإن العذاب ينتظره؛ لأن الله لا يعجزه حساب الخليقة على كثرتهم، فإنه يحاسب الجموع الكثير في الوقت القصير، فحسابه للبرية كافة كحسابه لنفس واحدة.

﴿٢٠﴾ ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

فإن جادلوك - يا محمد - بأهوائهم الباطلة، وأقوالهم المتهافتة، فأخبرهم أنك أخلصت دينك لله على بصيرة من الله، ترجو ثواب الله، فأنت وأتباعك على يقين من الحق الذي معكم وعلى صراط مستقيم، واسأل اليهود والنصارى والمشركين بعد هذا البيان وظهور الإيمان وسطوع البرهان، أما قبلتم الإسلام دينًا، وعلمتم أنه حق من عند الله؟ فإن اتبعوك وصدَّقوا بما جئت به فقد أصابوا وسدّدوا، فلهم الحظ الأعظم، والفوز الأكبر، وإن أبوا وكذبوا وعاندوا فقد بَلَّغتَ رسالتك، وأدَّيتَ أمانتك، فلا تحزن لكفرهم، ولا تهتم لتكذيبهم، فمصيرهم إلى رب العباد الذي هو بالمرصاد لأهل الكفر والعناد، وهو عالم بعمل الجميع، مطلع على كل دقيق وجليل؛ ليوفي كلاً حسابه.

﴿٢١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

إن اليهود الذين كذبوا بما جاءت به رسلهم من الآيات، وقتلوا الأنبياء وأتباعهم من الدّاعين إلى الله، فهؤلاء لهم عذاب أليم في الجحيم، جزاء صنيعهم الشنيع وفعلهم الفظيع، وهي شاملة لكل من سخر من الشريعة أو صد عنها أو آذى حملتها باضطهاد أو حبس أو قتل.

﴿٢٢﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة أبطلوا ما عملوا من خير بما فعلوا من شر، فلا سعادة لهم في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، بل حياتهم عار ودمار، وآخرتهم لعنة ونار، وليس لهم من ينصرهم فيدفع عنهم العذاب، ويمنعهم من العقاب؛ لأن الله غالب على أمره ولا راد لقضائه.

﴿٢٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾

ألا تعجب من اليهود الذين تعلموا كثيرًا من التوراة وعرفوا ما فيها من أحكام، يُقال لهم: تعالوا عند المنازعة إلى التوراة لتأخذوا حكم الله منها، وبعد سماع الحكم تأبى طائفة منهم هذا الحكم الإلهي وتطلب غيره صدودًا وعصيانًا وتمردًا وطغيانًا.

﴿٢٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

وسبب إعراضهم عن شرع الله أنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ والحبيب لا يعذب حبيبه، فلا يُعَذِّب إلا مدة يسيرة بمقدار ما عبدوا العجل وهذا الزعم منهم كذب ودجل، بل ليس له أصل، فكل من كفر بالله خلّده في نار جهنم كائنًا من كان، لكنهم يقولون: إن الله وعد يعقوب ألا يعذبَ أبناءه، وهذا كذب وافتراء، وزور وهراء.

﴿٢٥﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

فماذا يفعلون إذا أحضرناهم للحساب وأتينا بهم للعقاب؛ في يوم واقع لا محالة، لتحاسب كل نفس على ما قدمت من خير أو شر بلا ظلم ولا جور.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فيامن بيده الملك ومقاليد الأمور والمتصرف في الخلق والمدبر للكون وله من في السموات والأرض، أنت وحدك تعطي الملك من تريد من عبادك، وتخلع من تريد منهم من ملكه، وتمنح العزة من تريد، وتدخل الذلة على من تريد؛ لأنك وحدك القادر على النفع والضر، فلا يعجزك شيء ولا يتعاظمك أمر، ولا يستعصي عليك مطلب؛ لأن قدرتك نافذة، وحكمك ماض، وسلطانك قاهر، تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد.

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وأنت وحدك -يا حكيم- من يدخل الليل في النهار بعد انقضائه فيذهب ضياؤه، ويدخل النهار في الليل بعد انتهائه فتذهب ظلمته فتزيد من هذا في هذا بمشيئتك، يُغْشِي الليل النهار حثيثًا، فإذا الظلام يمضي رويدًا رويدًا حتى يطبق العالم بجلبابه، ويُغْشِي النهار الليل، فإذا النور يتضاءل شيئًا فشيئًا حتى يبهر العالم بنوره في نظام عجيب وحكمة باهرة، وقدرة نافذة، وتنبت الزرعة الخضراء من الحبة اليابسة، والنخلة الباسقة من النواة الجامدة، والبيضة الميتة من الدجاجة الحية، فأيَّ قدرة أعظم، وأي صنيع أعجب وأي فعل أحكم من هذا !! تاهت الأفكار في عظمة العزيز الغفار، بل كل آية في الكون سطر في كتاب العظمة، وحرف في سفر الوجود شهدت بألوهية وربوبية الملك الحق المعبود، وهو - سبحانه - وحده يعطي من شاء من عباده ما شاء من عطائه هبةً منه بلا حد، وسخاء بلا عد، وكرمًا بلا رد.

﴿٢٨﴾ ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

لا توالوا -أيها المؤمنون- الكافرين من دون الله وتتخذوهم أحبابًا وإخوانًا وأصحابًا وأعوانًا من دون المؤمنين، فإن فعلتم ذلك من الولاء لأعداء الله والتنكر لأولياء الله، فلستم عباد الله حقًا، ولا أولياءه صدقًا، ودعواكم الإيمان كذب ونسبتكم إليه زور.

لكن إذا تيقنتم من الضرر الداخل عليكم منهم فأظهروا لهم القول اللين والخطاب الجميل مع بقاء الولاء لله والمحبة في القلب، فهي مصانعة بالظاهر، ومجاملة باللسان فحسب، فمن تيقن من الكفار المكاره جاز له إظهار ما أحبوه.

وخَافُوا غضب الله، فإن الله قد أنذركم ذلك، ونهاكم عن كل ما يوجب عذابه وعقابه، وسوف تعودون إليه لا محالة ليوفي كلاً بصنيعه، من أحسن فله الإحسان، ومن أساء فله العذاب في النيران.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وأخبر أمتك من أسرّ في نيته شيئًا، أو أظهر من عمله شيئًا فالله مطلع على الجميع عالم بالكل، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، فإذا كان هذا علمه بكم وقدرته عليكم فلماذا لا يوقر ويقدر، فهو أولى من عُظِّم، وأحق من اتُّقي، وأولى من قُدِّس، فهو مع ملكه لما في السموات والأرض أحاط بما فيها علمًا، وأحصى ما بها من عدد، وتكفل بما فيها، فهو الذي خلق الزمان والمكان والإنسان، وهو على فعل ما شاء قادر لا يعجزه فعلٌ أن يفعله، ولا يغلبه مغالب أن يقهره، ولا يفوته مطلوب أن يدركه، جل عن الأشباه لا إله إلا الله.

﴿٣٠﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

ويوم القيامة يوفى كل عامل بعمله فلأهل الخير ثواب وزلفى، ولأهل الشر عقاب ونار تلظى، فما فعلت وجدته أمامك، فالفعل الجميل ثوابه جزيل من رب جليل، والفعل القبيح جزاؤه الخسار والنار، حينها يتمنى من أساء أن بينه وبين عمله أرض وسماء، ويودّ لو أنه عنه بعيد، وأن بينه وبينه بِيْدًا دونها بِيْدُ، لكن هيهات، وقع -والله- في الضنك بلا شك، فليس له خلاص، وما من عمله مناص، والله إنما أخبركم بهذه الأخبار من باب الإعذار والإنذار؛ ليكف النفس عن الردى، ويلزم الصالح طريق الهدى، ومن رأفته بالعباد إنذاره لهم يوم المعاد؛ لأنه تلطف بخلقه وأخبرهم بما يسرُّهم، وأحسن في صرفه عنهم ما يضرهم، فمن رأفته الإمهال بلا استعجال، وقبول التوبة، وتقديم التحذير وإقامة الدليل لقطع الاحتجاج.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يا من ادعى حب الله عليه بالدليل وهو اتباع الرسول والاقتداء به، فمن اهتدى بمحمدﷺ فقد أحبه، ومن أحبه أحب الله، ومن أحب الله استوجب رضاه، فمجرد الدعوى بلا برهان ادعاء، وقول بلا عمل يصدقه افتراء، ومن تبع هذا النبي الأمي أحبه مولاه، واجتباه وسامحه عن خطاياه وتجاوز عن سيئاته؛ لأنه واسع المغفرة، يمحو كثير السيئات بقليل الطاعات، عظيم الرحمة فاقت رحمته بالعباد رحمة الأم بالأولاد، فالواجب على العبد أن يقابل هذه الأفضال بالامتثال، وهذا العطاء بالاهتداء والاقتداء، يهتدي بالكتاب المنزل، ويقتدي بالنبي المرسل.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

قل - يا محمد - للناس إن كنتم تريدون السعادة والفلاح، والفوز والنجاح فأطيعوا الله ورسوله بامتثال ما في الكتاب والسنة والعمل بما فيهما من أوامر واجتناب نواهيهما، فإن كذبتم وأعرضتم فأنتم في عداد من كفر، والله يبغض الكفار ولا يحب الفجار؛ لأنهم أعداؤه وأعداء رسوله.

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

اختص الله بالنبوة واختار للرسالة آدم أبا البشر، ونوحًا أول الرسل، وإبراهيم أبا الأنبياء، وآل عمران بيت الطاعة والصلاح، فميزهم على كل الناس بالاصطفاء، وخصهم بالاجتباء، فقاموا بحقوق الولاية، وأدّوا شكر الهداية.

﴿٣٤﴾ ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهم سلالة واحدة بعضهم من نسل بعض، يرث التالي الأول في الخير والصلاح، تشابهوا في الفضائل، وتجانسوا في المكارم، أسرة برٍّ، وأهل تقوى، والله أعلم بمن يصطفي؛ لأنه يسمع الأصوات والحركات، ويعلم الخفيات والنيات، فاختياره عن علم، واجتباؤه عن حكمة.

٣٥ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر - يا محمد - للناس القصة العجيبة لما دعت امرأة عمران الولي الصدِّيق فقالت: إني نذرت أنَّ ما أحمل في بطني إذا ولدته يكون خالصًا لخدمة بيت المقدس، فأسألك أن تتقبل مني ما نذرت؛ ولأنك تعلم أني جعلته لوجهك لا رياء ولا سمعة، ويكفي علمك لأنك مطلع على الضمير، عالم بالسريرة، تسمع كل مسموع، وتعلم كل معلوم، من أخلص في قصده علمته، ومن أراد غيرك جازيته.

٣٦ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

فلما ولدت ما في بطنها إذا بالمولود أنثى فكأنها تأسفت فاعتذرت، لأن من عادتهم أن الذكور للنذور، والبنات لخدمة البيوتات، والله عالم لا يُعلَّم أنها أنثى، فهو يعلم السر وأخفى، ثم قالت متحسرة: وليس الرجل كالمرأة في القوة والقدرة على العمل والتحمل؛ لأن الأنثى ضعيفة تصلح للأمومة، والرجل يصلح للكد والعمل.

ثم أخبرت أنها سمتها مريم أي الطائعة العابدة في لغتهم تيمنًا وتفاؤلاً، وأسألك يا رب أن تحفظها وذرِّيتها من نزغات الشيطان وفتنته، فإن من تعصمه في أمان، ومن تحفظه وُفق للبر والإيمان.

٣٧ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فقبل الله هذا النذر وهي مريم من أمها قبولاً مباركًا، فحفظها وتولاها، وهداها وأكرم مثواها، وأصلح شأنها واجتباها، وجعل الوصي على تربيتها النبي الكريم زكريا، فتعاهد أمرها بما يصلحها، ورعاها أحسن الرعاية، وتولاها أجمل ولاية، فنشأت عابدة قانتة، لها معبد تعتكف فيه للذكر والعبادة، فكان الله يهيئ لها طعامًا يكفيها وقت حاجتها إلى الطعام، دون كسب ولا تعب منها؛ كرامةً من الله لها، فتعجب زكريا من وجود هذا الطعام وسألها من أين ومَنْ جاء به؟ فأجابت: هو رزق من عند الله الكريم المنّان، وهو - سبحانه - يعطي من يشاء بلا حدود؛ لأنه واسع الفضل عظيم الجود.

٣٨ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

فلما رأى زكريا هذه الكرامة وشاهد هذه العلامة، تضرع إلى ربه ومولاه وسأله ودعاه أن يهب له ولدًا صالحًا من زوجته العقيم على شيخوخة منه؛ لأنه لما أبصر ما أكرم الله به مريم من إحضار الطعام بلا كد ولا اجتهاد، طمع في الأولاد من غير السبب المعتاد؛ لأن الواحد الأحد لا مستحيل يمنع قدرته ولا صعب على إرادته.

٣٩ ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

فأجاب الله دعوته فنادته ملائكة الرحمن وهو في مسجده يصلي، فبشرته بمولود كريم، وصبيّ حليم، يصدق نبوة عيسى الذي خُلق من الله بكلمة كن من دون أب.

وهذا المولود المبارك سوف يسود الناس في زمانه بالعلم والحكمة والنبوة، وهو ورع تقي عفيف، يصون نفسه عن الشهوات، ولا يقرب النساء لتفرغه للعبادة، واشتغاله بالسيادة، وانهماكه في الخيرات، وفعل الصالحات، وهو نبي يوحى إليه، معصوم من الخطايا، عامل بمقتضى الحكمة.

٤٠ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

يا رب كيف يولد لي مولود وقد كبرت سني ورقَّ عظمي ودهمتني الشيخوخة، وزوجتي أصابها العقم لا تنجب، فأخبره ربه أنه يفعل ما أراد، لا يستعصي عليه أمر، ولا يستحيل عليه شيء، ولا يعجزه فعل؛ لتمام القدرة ونفوذ الحكمة، يُخرِج الماء من الحجر.

﴿٤١﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾

قال زكريا: رب اجعل لي علامة أعرف بها أن زوجتي حملت بغلام، فأخبره ربّه أن علامة ذلك عجز زكريا عن الكلام ثلاثة أيام من غير خرس ولا مرض، لكن لا تستطيع التعبير عما في نفسك إلا بالإشارة، وهذا لا يمنعك من ذكر ربك؛ فاذكره أول اليوم بعد طلوع الشمس وآخره قبل الغروب؛ إظهارًا للشكر واعترافًا بالنعمة، واستمرارًا على العبودية.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر حين قالت الملائكة لمريم: لقد اصطفاك ربك ومولاك من بين النساء جميعهن، فحباك بالكرامة ولزوم الاستقامة، وطهرك من كل فعل دنس وعمل نجس، ونزهك عما رماك به اليهود من فرية عظيمة وكذبة وخيمة، فصان الله عرضك - جل في علاه - فكنت بحق أهلاً للاصطفاء ومحلاً للاجتباء.

﴿٤٣﴾ ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

فداومي يا مريم على عبودية مولاك وعلى ذكره وشكره، فبالعبادة تُنال السيادة، وتطلب الزيادة، وتحصل السعادة، وحافظي على الصلاة مع المصلين، فهي قرة العين، وبهجة الروح، وعماد الدين، فبالعبادة تنالين أشرف المقامات، وأجزل الهبات، وأعظم الدرجات.

﴿٤٤﴾ ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾

هذه الأخبار الغيبية -يا محمد- لولا أن الله قصها عليك ما كان لك بها علم؛ لأنه لا طريق للاطلاع عليها إلا بالوحي من الله، مثل قصة امرأة عمران وابنتها مريم الطاهرة المطهرة، وزكريا وابنه يحيى، فأنت - يا محمد - لم تحضر يوم استهموا أيهم يقوم بكفالة مريم، وحين اختلفوا في شأنها، وهذا دليل على أنك رسول من عند الله وعلى صدق نبوتك، فلولا الوحي من القهار ما علمت هذه الأخبار.

﴿٤٥﴾ ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾

واذكر إذ جاءت الملائكة تبشر مريم بولد يولد لها وهي بلا زوج؛ لتكون وابنها آية على قدرة اللطيف الخبير؛ لأن الأصل أن الولد من أب إلا آدم وعيسى، آدم من تراب وعيسى بكلمة «كن» من الله، فالله بشرك بعيسى وسماه ولقبه واختاره واجتباه ورفعه إليه وحماه، وجعله إمامًا في الدنيا ووجيهًا وشريفًا مكرمًا، وفي الآخرة مقربًا عند الله في مقعد صدقٍ، في مقام جليل وفي إكرام وتبجيل.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ومن المعجزات في خلق عيسى أنه يتكلم وهو طفل لم يمش، ولم يحْبُ ما زال في سرير الولادة مثل كلامه وهو في حال اكتماله، فليس كلامه كلام أطفال بل كلام رجال وهو من الصّالحين المحفوفين بالعناية، المحفوظين بالعصمة.

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

فتعجبت مريم كيف يكون لها ولد ولا زوج لها ولم يقربها رجل، قال لها الملك: الله قدير على كل شيء لا يعجزه شيء، غلب أمره ونفذت مشيئته، وعمت قدرته، وإذا أراد - سبحانه - إيجاد شيء فإنما يقول له: "كن فيكون".

﴿٤٨﴾ ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾

والله يعلم عيسى الكتابة بلا معلم، ويمنحه العلم النافع والفقه في الدين، ويحسن علم التوراة كتاب موسى، وكتابه وهو الإنجيل، وفيه أن الكتابة باليد منقبة، والفقه في الدين شرف، واتباع الوحي فوز ونجاة.

﴿٤٩﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

ويكرم الله عيسى بالرسالة فيبعثه إلى بني إسرائيل، ويخبرهم أن معه دليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على صحة نبوته وثبوت رسالته، منها أنه يشفي من وُلد أعمى فيرده بصيرًا بإذن الله، ويداوي الأبرص فيعود له جلد جميل بإذن الله، ويرد الروح على الميت فيعود حيًا بإذن الله، ويخبرهم بأمور الغيب كأنواع الطعام في بيت كل واحد منهم، وما خزّنه من مال وأخفاه من متاع وهو لم يشاهده، لكن أطلعه الله عليها، وهذه آيات عظيمة وحجج قاطعة على صدق رسالته، إن كانوا يريدون تصديقه واتباعه فقد ظهر الصبح لذي عينين، وقامت الآيات للسائلين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

وأتيتكم بعد موسى مصدقًا لرسالته وجعل الله رسالتي رحمة بكم لما فيها من الرخصة والسماحة، فمن ذلك أنني أحل لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى، وعندي معجزة ظاهرة ودليل ثابت على صدقي فيما أدعو إليه، فخافوا الله واتبعوني، واخشوا الله وصدقوني، وفي هذا ركنا العبادة: الطاعة لله، واتباع رسله، أو قل: الإخلاص والمتابعة.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

إن الذي يستحق الألوهية وله العبودية هو الله وحده الذي خلقني وخلقكم، فأنا لست إلهًا ولا ثالث ثلاثة ولا ابن الله، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإنما أنا عبد من عبيده، أكرمني بالرسالة، هذا هو الحق البين الواضح، والطريق القويم الموصل إلى النعيم المقيم، والفوز العظيم.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾

فلما شعر عيسى بتكذيب اليهود ومكرهم وإرادتهم قتله كما فعلوا بالأنبياء قبله قال للمؤمنين ممن صدقوه واتبعوه: من يحميني لأبلغ دين الله؟ ومن يدفع معي أعداء الله؟ فقال الخلّص وهم الصفوة من أتباعه: نحن ننصرك، وقد شهدنا بأن لا إله إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ونحن نستشهدك على صدقنا وانقيادنا لما جئت به من عند ربك.

﴿٥٣﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

ثم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا قد صدَّقنا بما أنزلت على عيسى من الإنجيل واتبعناه، فاكتبنا مع الصادقين يوم القيامة الذين يشهدون على غيرهم من الأمم، وفيه أن أعظم ما يتوسل، إلى الله به هو الإيمان به وبرسله، وأن الصدق في الدنيا نجاة في الآخرة.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾

ودبروا لعيسى مكيدة، وحبكوا خُطَّة لقتله، فأحبط الله خطتهم، ورد كيدهم، بأن شبه لهم غير عيسى فحسبوه هو، وسلم عيسى ورفعه، وقتلوا الخائن المندس الشبيه لعيسى فلبّس الله عليهم أمورهم، وهتك أستارهم، وأذلهم لأنه أقوى منهم مكرًا، وأعز جانبًا، وأعظم قدرةً، فهو يكيد لأوليائه ويكيد ويمكر بأعدائه.

٥٥ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أخبر الله عيسى أنه سوف يميته مثل ما يميت عباده، ويرفعه إليه مكرمًا معززًا، ويحميه من كيد الفجار، ويُطهِّره من رجس الأشرار الذين أرادوا قتله فخذلهم الله وأذلّهم، وأخبره الله بذلك ليطمئن إلى حسن التدبير وجميل المصير، ورفع عيسى كان بروحه وجسده، (فالنصارى) كاذبون في قولهم أن عيسى قُتل، فكيف يُؤلَّه ثم يُقتل؟!! ولو كان إلهًا فهل الإله يقتل ويصلب! وقد كذب الله دعواهم، وصدق الله وكذبوا، وتعالى الله وخابوا.

وأخبر الله عيسى أنه سوف يرفع أتباعه ويعزهم وينصرهم إلى يوم القيامة وهم من صدّق برسالته، واتبعه قبل مبعث الرسول ﷺ، وكذلك من آمن بعيسى من أتباع محمد ﷺ دون اليهود الذين كذبوه، والنصارى الذين ألّهوه، ومرجع من اختلف في عيسى إلى الله يوم القيامة؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ويثيب المؤمن الصادق، ويعذّب الكافر الكاذب؛ لأنه الحكم العدل، قوله فصل ليس بالهزل ورحمته فضل.

٥٦ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

فأما من كذبك وكفر بما أنزل عليك وزعم أنك إله وأنهم صلبوك، فلهم خزي في الدنيا من الذل والقتل والأسر والتشريد، ولهم في نار جهنم عذاب أليم، لا ينصره ناصر ولا يشفع له شافع، وهؤلاء هم أهل الصليب وأهل التثليث.

٥٧ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وأما من صدق بالرسالات وآمن بالله وعمل أعمال البر من صلاة وزكاة وغيرها فالله - تعالى - يحفظ لهم ثوابهم، ويتمم لهم أجرهم كاملاً غير منقوص؛ لأنه لا يحب من ظَلَمَ، فكيف يَظْلِم - سبحانه - وقد حرّم الظلم على نفسه، فلا يبخس محسنًا حسناته، ولا يزيد على مسيء سيئات لم يعملها.

٥٨ ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

هذه الأخبار نقصُّها عليك - يا محمد -، وهي بالصدق أتت، وبالحق نزلت في هذا الكتاب المبارك الذي أوحيناه إليك، وفيه الشرف لك ولقومك، والحكمة المتناهية؛ لأن من أنزله عزيز كمل سؤدده وعظم ملكه، حكيم فصّله بعناية وأنزله للهداية.

٥٩ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

إن خلق عيسى كخلق آدم، فإن آدم خُلق بلا أب ولا أم، وهذا أتم في الإعجاز، وأكمل في القدرة، فخلق عيسى من باب أولى وفيه ضرب الأمثال، والإقناع بالتدرج، وإحالة المشكوك فيه إلى المعلوم، فآدم متفق عليه بين عقلاء البشرية أنه من تراب، صور بكلمة «كن» من الله، فلا يستغرب إذًا خلق عيسى.

٦٠ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

هذا فصل الخطاب في قضية عيسى، وهو الصدق البيّن والحق الواضح، فلا تَشُكّ مع من شك، بل اعتقد ما قلناه ولا تلتفت لغيره من الهراء، ولا تصدق سواه من الافتراء.

٦١ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فمن خالفك وخاصمك بعد هذا الحق الذي أخبرناك به فباهلهم مباهلة، وَأمْرهم أن يجمعوا أحب الناس إليهم من الأبناء والنساء، ثم ادعوا جميعًا أن يلعن الله الكاذب في شأن عيسى، وقد دعا ﷺ نصارى نجران للمباهلة فامتنعوا فظهر الحق وبطلت دعواهم الكاذبة الآثمة، فكل كاذب له حظ من اللعنة قلّت أو كثرت.

٦٢ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إنّ الذي أخبرناكم به في شأن عيسى ابن مريم هو الصحيح الثابت، والحق القاطع، فهو عبد نبي كريم على الله، أمه مريم وليس له أب، خُلق بكلمة: "كن" وليس كما قال: اليهود: إنه أتى من حرام عليهم لعنة الملك العلام، ولا ما قالت النصارى إنه ابن الله، عليهم غضب الله، بل الصحيح ما في القرآن لا ما قاله الفريقان، فليس هناك إلا إله واحد يستحق العبادة، وهو الله وحده لا عيسى ولا غيره وليس لله صاحبة ولا ولد، بل أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والله وحده صاحب العزة، فمن عزته أنه تفرد بالجلال وتوحد بالكمال فقهر ما سواه وأعز من والاه، وأذلّ من عاداه، وهو الحكيم وحده، فمن حكمته أنه أحسن لما أبدع، وبهر العقول بما صنع.

٦٣ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

فإن كذبوا هذا الحق الذي أُنْزِل عليك، والصدق الذي أُوحِي إليك من إخلاص التوحيد لله، وعدم الإشراك به، فاعلم أنهم مفسدون؛ لأن من رفض الدليل ورد الحجة وكفر بالبينة فاسد القلب والتصور، والله عالم به سوف يجازيه بما فعل.

٦٤ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: هلموا نتفق على كلمة عادلة وقضية فاصلة تجمع بيننا وبينكم، وهي أن نوحِّد الله بالعبادة، ولا نشرك معه غيره، ولا يؤلّهَ مخلوق مخلوقًا مثله، ويصرف له شيئًا من العبادة، من الأوثان والشيطان والصلبان، ولا كفعل اليهود في عبادة عزير، والنصارى في عبادة عيسى، ولا في اتخاذ العلماء والعباد أربابًا يحللون ويحرمون من دون الله، فإن امتنعوا عن قبول هذه الدعوة وأبوا إلا الكفر والتكذيب، فقل اشهدوا أيها اليهود والنصارى أننا وحَّدنا الله ولم نشرك به شيئًا، وكفرنا بكل ما يعبد من دونه، وهذه حقيقة الإسلام الذي معناه الاستسلام والانقياد والخضوع لله رب العالمين.

٦٥ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى كيف تدّعون كذبًا وزورًا أن إبراهيم يهودي أو نصراني، والتاريخ يشهد أن إبراهيم قبل اليهودية والنصرانية بأعوام مديدة وقرون عديدة، فلا بالوحي أخذتم ولا بالتاريخ صدقتم، ولا بالعقل حكمتم، فالتوراة نزلت على موسى بعد إبراهيم، والإنجيل على عيسى بعد الخليل فلماذا هذا التحريف والتبديل؟!!

٦٦ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

أنتم أيها اليهود والنصارى خاصمتم في قضية واضحة لكم وهي قضية عيسى، فقد أدركتموه وعشتم معه، لكن إبراهيم خاصمتم في شأنه وهو قبلكم بقرون لا تعلمون أخباره، ثم تدعون أنه يهودي أو نصراني، فكيف يتكلم الإنسان فيما يجهل؟! وإلا فإبراهيم جاء بالحنيفية السمحة قبل مجيء موسى وعيسى، فلا شأن له باليهود والنصارى، فهم بعده بأزمان، لكن كيف تُقْنِع من أصيب بالخذلان، فالعلم لله وحده؛ لأنه المطلع على كل شيء، أما أنتم فجهلاء أغبياء.

٦٧ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

لم يكن إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا - لتقدمه عليهما - ولكن كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكُ من المشركين، كمن قال: عزير ابن الله والمسيح ابن الله.

٦٨ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن أحق الناس باتباع إبراهيم الخليل هو هذا النبي الكريم محمد ﷺ وليس اليهود ولا النصارى، وكذلك من اتبع إبراهيم على الحنيفية السمحة ملة التوحيد من سائر الأمم وأتباع محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فكل حنيف مسلم

موحد بريء من الشرك، فهو على دين إبراهيم الذي رضيه الله وأحبه وتولى من دان به، ومن تولاه الله أحسن رعايته وأيّده، وأصلح أموره وأسعده.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

تمنى فريق من اليهود والنصارى ردَّتكم عن الإسلام وإغواءكم عن طريق الهداية بإثارة الشبه ونشر الفتنة حسدًا لكم على الهداية وبغيًا منهم وإمعانًا في الغواية، ولكن لن يضروكم، فالله تولى أمركم، وسوف يرد كيدهم وضررهم على أنفسهم، فيضاعف لهم العذاب، ويعظم لهم العقاب، لكنهم لا يعلمون سوء ما يفعلون، فعل السفيه الغبي، ولا يدركون خطورة ما يصنعون، تصرف الأحمق الشقي.

﴿٧٠﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تكذِّبون محمدًا ﷺ وما أنزل الله عليه من قرآن، وأنتم تعلمون علم اليقين أن ما جاء به حق؛ لأنه مذكور في كتبكم، بُشِّرت به أنبياؤكم، ووجدتم علامات صدقه ظاهرة، وآيات نبوته باهرة، فأنتم ضللتم عن عمد، وكفرتم على قصد.

﴿٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لم تخلطون الحق بالباطل تلبيسًا للناس ومخادعة، بتحريفكم كلام الله؟ ولماذا تجحدون الحق الثابت لديكم وهو صدق محمد ﷺ؟ فما ظهر من الحق لبستموه، وما سوى ذلك كتمتموه، فأنتم بين تدليس وتلبيس من إبليس، وأنتم متيقنون صدق الرسول محمد ﷺ وصحة ما جاء به.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقال بعض علماء اليهود لعامتهم: صدِّقوا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ أول النهار، وارجعوا عن دينكم آخره؛ لأن الناس إذا رأوا ذلك دخلهم الشك في الإسلام فارتدوا عنه؛ لأنهم سوف يقولون: إن اليهود كشفوا خللاً ونقصًا في الإسلام فتركوه، فيتركون هم دين الإسلام، وهذا من مكر اليهود وخبثهم وإيغالهم في الشر والفجور.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقالت اليهود بعضهم لبعض: لا تثقوا ولا تصدقوا إلا لمن كان يهوديًا؛ تعصبًا أعمى للباطل، أما غير اليهودي فلا يقبل قوله بل هو متهم عندهم، فأخبر - تعالى - أن الهدى ليس بهواهم ولا على ما أرادوا، بل هو في الدين الإسلامي الصحيح الذي بُعث به محمدٌ ﷺ، وخشي اليهود أن يكرم الله غيرهم بالرسالة، فرفضوا الاعتراف لغيرهم بالحق؛ حسدًا وبغيًا وخوفًا من أن يحتج عليهم المسلمون يوم القيامة إذا أقروا بنبوة محمد ﷺ ثم خالفوه فتآمروا ألا يصدقوا به أصلاً، ولا يجعلوا للمسلمين عليهم طريقًا من الإقرار بنبيّهم، فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخبرهم أن النبوّة ليست ملكًا لهم وليست حكرًا عليهم، بل هي فضل بيد الله يعطيها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ لأنه كثير التفضل كريم العطاء، جزيل الهبات، عليم بمن يستحق النبوة والولاية، مطلع على من هو أهل للفضل مستحق للكرامة.

﴿٧٤﴾ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

والله - تعالى - يجتبي للنبوة ويختار للرسالة من يصلح لها من عباده مثلما شاء سبحانه؛ لأن عطاءه عظيم لا تحده الأوهام، وفضله واسع لا يقدر قدره الأنام، فالنبوة فضل رباني لا لنسب ولا حسب ولا مال ولا جاه، لكنها العناية والرعاية لمن شاء الله له ذلك.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

في اليهود الأمين والخائن، فالأمين لو ائتمنته على مال كثير رده إليك؛ لما عنده من الضمير والأمانة والورع، وهذا من إنصاف القرآن ومن العدل في الحكم، ومن اليهود الخائن الذي لو ائتمنته على قليل من المال لما ردّه إليك، ولخانك إلا إذا كنت مراقبًا له لا تفارقه، حينها يَخْشاك، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي لنا التعميم في الأحكام، بل يجب التفصيل حتى لا يُظْلَم أمين ولا يُزَكَّى خائن، والذي يحمل اليهود على خيانة المسلمين أنهم يعتقدون أنه يجوز لليهودي أن يخون غيره، وليس للأميين الذين هم العرب احترام عندهم، ولا لأموالهم قيمة، ولا لأنفسهم عصمة، فحملهم هذا الكذب على استباحة أموال الناس واستحلالها، فكذّب الله - سبحانه - وتعالى قولهم، وأخبر أنهم يعلمون أنهم كذبة، وأنهم مفترون فيما زعموا.

﴿٧٦﴾ ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

وليس الأمر كما زعموا بأنه يُعفى عمن خان في أموال غيرهم، بل الصحيح أن من اتقى الله - سبحانه وتعالى - ووفّى بعهده وراقب مولاه ورد الأمانة إلى أهلها فهذا من التقوى، والله يحب المتقي وهو من يخاف ربه ويراقب مولاه ويخشى إلهه ويحفظ حدوده.

وفي هذه الآية تضمين للرد عليهم أنه ما أصابوا حينما سامحوا أنفسهم في أموال غيرهم، فأخبر الله أن الخائن محاسب معاقب، وأن الأمين مثاب مكرم.

﴿٧٧﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إن هؤلاء اليهود وأمثالهم الذين باعوا دينهم بثمن بخس، وبقيمة رخيصة من حطام الدنيا وجاهها وعرضها الزائل، هؤلاء ليس لهم نصيب عند الله من المغفرة، ولا حظ من الرضوان، وجزاؤهم أن الله يعرض عنهم يوم القيامة غضبًا عليهم ومقتًا لهم وسخطًا عليهم، فلا يكلمهم - سبحانه وتعالى - ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يخلصهم من دنس معاصيهم، ولهم عند الله - سبحانه وتعالى - عذاب مؤلم لسوء صنيعهم وجرمهم، وعلى ما فعلوه من فساد في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال، فهم كذبة في الأقوال مكذبون للرسل، كافرون بالأنبياء، خونة في المال، ناقضون للعهود، فجزاؤهم عند الله ما يستحقونه يوم القيامة.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

من اليهود طائفة تحرف ألسنتها في قراءة التوراة لتغير مدلول كلام الله - عز وجل - عن مقاصده ومراميه؛ ليتوهم الناس أن هذا الكلام الملتوي المحرّف هو من كلام الله في التوراة، وهذا كذب منهم وبهتان على طريقتهم، فأتوا بخطأين عظيمين: خطأ التبديل والتغيير لكلام الله، وخطأ الكذب والافتراء على الله - عز وجل -، وهذا الكذب الذي افتروه والباطل الذي فعلوه هم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كذبوا على الله -عز وجل- فهم غيّروا صفات محمد - عليه الصلاة والسلام - وأنكروا سماته في التوراة، وتلاعبوا في الحدود، وقدموا وأخروا في كتاب الله المنزّل، فجزاؤهم غضب من الله - سبحانه وتعالى - وعذاب شديد ينتظرهم، وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة من الذين شابهوهم من الفرق الضالة، من الفرق المغضوب عليهم الذين غيروا النص وبدّلوا وحرّفوا في معاني كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

﴿٧٩﴾ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

ليس لأحد من الناس بعد أن يشرفه الله - سبحانه وتعالى - بالحكمة والنبوة والعلم النافع أن يدعو الناس إلى عبادة شخصه والإشراك به من دون الله - عز وجل - هذا لا يكون أبدًا في الفطر السوية، ولا في العقول الصريحة، ولا النقول الصحيحة، هذا لا يمكن أن يكون، وهذا يدلك على افتراء النصارى على عيسى - عليه السلام - حينما زعموا أنه دعا الناس إلى عبادته، وأنه أمرهم أن يعبدوه من دون الله - عز وجل - إنما أرسله رسولاً وعبدًا له ليدل الناس عليه، ويأمرهم بعبادته وحده - سبحانه وتعالى - وهذا الذي حصل من عيسى فإنه أخلص العبودية لله، وأخلص في دعوة الناس إلى الله، إن هذا الرسول الذي يبعثه الله - سبحانه وتعالى - إنما يدعو الناس إلى طاعة الواحد وإلى تمام العبودية والألوهية لمن أرسله - سبحانه - ويأمر الناس أن يكونوا ربانيين يتعلمون الحكمة التي أنزلها الله على رسله، فيربون أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، فمن تعلم العلم وعمل به وعلّمه الناس وصبر على ذلك فهو رباني يُدعى في الملأ الأعلى، وإنما نُسب إلى ربه تشريفًا؛ ولأن أصل العلم من عند رب العالمين، وهذا الأصل في كل مسلم وداعية فضلاً عن الأنبياء والرسل الذين هم أكمل الخلق، فإنهم يدعون الناس إلى أن يكونوا عبادًا حكماء علماء يعلمون الناس الكتاب والحكمة، شكر لله على ما علمهم ودرّسهم وفقههم في الدين.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

لا يحق لنبي كائنًا من كان أن يدعو الناس إلى عبادة الملائكة من دون الله أو الأنبياء واتخاذهم أربابًا يَصرف لهم شيئًا من العبودية، وشيئًا من معالم الألوهية، كيف يفعل النبي هذا الفعل والله إنما أرسله لإصلاح الناس وردهم إلى ربهم وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان؟! أيمكن أن يأمر النبي الناس بالإشراك بالله بعد أن وحّدوه - سبحانه وتعالى - وألّهوه وأخلصوا له العبودية؟ هل يصح من رسول شرَّفه الله - سبحانه وتعالى - برسالة التوحيد أن يغوي الناس وأن يضلهم وأن يصرفهم عن عبادة الله؟ وهذه هي دعوى النصارى - قاتلهم الله - فإنهم زعموا أن عيسى إنما دعاهم لعبادته وعبادة أمه، وهذه فرية عظيمة وكذبة وخيمة قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

﴿٨١﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

واذكروا -أيها اليهود والنصارى- يوم أن أخذ الله ميثاق المرسلين وألزمهم بالعهد المؤكد من أجل ما وهبهم الله - سبحانه وتعالى- من الكتاب المنزل والحكمة المؤيدة من عنده، هذا العهد أنه إذا بعث رسولاً بعدهم من عنده - سبحانه - وهذا الرسول يصدق ما عندهم ليصدِّقنّه هؤلاء الأنبياء ولينصرنّه، فالله - سبحانه وتعالى - ما بعث نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته فسألهم - سبحانه وتعالى - هل اعترفتم؟ هل آمنتم بهذا العهد؟ هل ذكرتم هذا الميثاق؟ هل قمتم بلوازم هذا اليمين؟ قالوا: اعترفنا، فلما اعترفوا أمر الله - سبحانه وتعالى - بعضهم أن يشهد على بعض، فإذا شهد بعضهم على بعض فالله - سبحانه وتعالى - معهم من الشاهدين على هذا الإقرار العظيم، وملخصه أن عليهم أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ﷺ الذي بُعِثَ مصدقًا لما قبله ﷺ.

﴿٨٢﴾ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

فمن نكث هذا الميثاق ونقض هذا العهد منكم أيها اليهود والنصارى بعدما أقررتم على أنفسكم، وبعدما شهد بعضكم على بعض فمن أعرض من بعد ذلك فهذا خارج عن طاعة الله، كاذب خائن، وهذا الميثاق هو ميثاق مقدس عظيم،

وهو شرف لرسولنا الكريم ﷺ، وهو شهادة من الواحد الأحد برسالته قبل أن يبعثه احتفاءً بهذه النبوة، وتقديمًا لها وإشهارًا لمكانته - عليه الصلاة والسلام - عند جميع الأمم.

﴿٨٣﴾ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

أيبحث اليهود والنصارى عن دين آخر غير هذا الدين الحق دين الإسلام؟ أيريدون منهجًا غير منهج الله الذي رضيه لأنبيائه وعباده الصالحين؟ لماذا لا يتبعون منهج الله - سبحانه وتعالى - الذي رضيه؟ والله - سبحانه وتعالى - عظيم قد انقاد له وخشع كل مَنْ في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وأقبلوا إليه مسلِّمين مذعنين إما عن طاعة وحب، وإما عن قهر وإجبار، فالكل منقاد له - سبحانه وتعالى - وطائع وذليل، فما يحق لهؤلاء المنحرفين عن منهج الله إلا أن يدخلوا فيما دخل فيه الخلائق من الاستسلام للواحد الأحد، فمرجعهم إليه يوم العرض الأكبر، يجازيهم بأفعالهم ويحاسبهم بأقوالهم وأعمالهم، وهو مطلع على أحوالهم لا رب سواه ولا نعبد إلا إياه.

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

قل - يا محمد - أنت والمؤمنون معك: صدّقنا بوحدانية الله، وآمنا بألوهية ربنا - سبحانه وتعالى - واعترفنا بربوبيته وأسمائه وصفاته، وآمنا بما أنزل الله على أنبيائه المرسلين المصطفين المذكورين في الآية، وصَدَّقْنا بما نَزَّل الله - عز وجل - من التوراة على موسى والإنجيل على عيسى؛ لأن موسى وعيسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهما من أولي العزم، ونحن أيها المؤمنون نؤمن بجميع المرسلين، ولسنا كاليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، ولا كالنصارى الذين آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد وموسى، ولكننا آمنا بالجميع، لا نفرق بين أحد منهم، فكلهم مرسلون صادقون أنبياء كرام، وإقرارنا هذا لله - سبحانه وتعالى - بالألوهية وبالعبودية وبالربوبية، هذا هو الدين الصحيح، وهو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنحن المسلمون حقًا، ونحن المصيبون صدقًا، وأما غيرنا فبدلوا وغيروا وحرّفوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ألَّهوا بعض الأنبياء وقتلوا بعض الأنبياء، ونحن آمنا بالجميع، وصدقنا الجميع، والحمد لله رب العالمين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

من يُرِدْ دينًا غير هذا الدين الذي بُعث به محمد ﷺ وهو دين الإسلام فلن يقبل الله دينه ولا طاعته ولا عبادته بعد مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - نُسخت كل الأديان وبطلت بدينه وبرسالته، وهذه الآية ردٌ على من افترى على الله، وكذب على دينه وادعى أن اليهود والنصارى إذا كانوا على ديانتهم ولم يعتنقوا الإسلام أنهم مصيبون؛ لأنهم تمسكوا بما عليه أنبياؤهم، وهذه كذبة عظيمة تردها الآية، ونشهد الله - عز وجل - على أن الله لا يقبل بعد مبعث الرسول ﷺ من العبد إلا دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية ولا غيرها من الأديان، فالإسلام دينه المرتضى، وصراطه السوي، وطريقته المثلى.

﴿٨٦﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

كيف يكون على هدى ويكون مصيبًا من كذب خاتم النبيين محمدًا ﷺ بعد أن علم أن رسالته حق، وبعد أن شهد أن ما جاء به من عند الله حق، وبعدما وجد وصفه ﷺ موجودًا في التوراة والإنجيل، مثل هذا كيف يهتدي؟ كيف يُسَدَّدُ؟ إن الذي يفعل هذا الأمر بعد أن يستبين له الحق جدير بأن يضله الله - سبحانه وتعالى - ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً يوم القيامة؛ لأنه ظالم، حرّف الأدلة، ورد الحجة، وتنكب المحجة، والله لا يهدي من هذا شأنه في الظلم

والطغيان والبغي، وهذا هو فعل اليهود والنصارى بعد مبعثه ﷺ، فقد تبين لهم الحق وظهرت لهم الأدلة، وبانت لهم البراهين ثم رفضوا ذلك كله.

﴿٨٧﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل وكذبوا محمدًا ﷺ بعد ما بان لهم الحق، فهؤلاء كفار أشرار جزاؤهم عند ربهم - سبحانه وتعالى - لعنة ماحقة ساحقة محرقة، يلعنهم الله بها فيطردهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والناس أجمعين، المهتدي والضال، الصالح والطالح؛ لأنهم كتموا شهادة عندهم من الله؛ ولأنهم نكثوا عهد الله؛ ولأنهم حاربوا رسول الله، وردوا الحجة البينة من الله.

﴿٨٨﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

فجزاء هؤلاء أن يبقوا معذبين أبد الآبدين في نار جهنم، ولا يُخَفِّفُ الله عذابهم ولا يرفع عقابهم، ولا يشفع فيهم شفيع، ولا يدافع عنهم مدافع، ولا ينصرهم ناصر؛ لأنهم جاهروا الله بالعداوة وكفروا عن قصد، وكذبوا عن عمد، ورفضوا الهداية التي بُعث بها نبي الله ﷺ.

﴿٨٩﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لكن من عاد إلى الله - سبحانه وتعالى - ورجع إلى الحق وآمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وكفر بما يُعبد من دون الله - عز وجل - واهتدى بالنور الذي بُعث به ﷺ واتبع سنته واهتدى بهديه فهؤلاء يغفر الله ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويتجاوز عن أخطائهم، ويعفو عن سيئاتهم، فإنه - سبحانه وتعالى - كثير المغفرة، واسع الرحمة، لا يتعاظمه شيء، وهذا فتح باب التوبة لمن فعل الفعل الشنيع، والعمل الفظيع، فكيف بغيره ممن هو أقل منه من أهل الكبائر وأهل المعاصي، وهذا فيه رجاء كبير من رحمة أرحم الراحمين.

﴿٩٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

إن اليهود الذين كفروا بعيسى بعد أن آمنوا بموسى ثم ازدادوا طغيانًا وعتوًا فكفروا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - هؤلاء زادوا شرًا إلى شر، وفجورًا إلى فجور، هؤلاء الخونة المعرضون الناكثون لعهد الله لا يقبل الله - سبحانه وتعالى - توبتهم؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند الموت ولا يغفر ذنوبهم، ولا يتجاوز عنهم؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، وصدوا عن سبيل الله - عز وجل - وأغرقوا في الكفر وأمعنوا في الضلال وأكثروا من الفساد.

﴿٩١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسله واستمروا على ذلك حتى ماتوا ولم يسلموا، هؤلاء لو أتوا يوم القيامة بما يعادل الأرض ذهبًا وجعلوه فديةً لهم من عذاب النار، لن يقبل الله - سبحانه وتعالى - منهم هذه الفدية، ولن يخرجهم من النار، بل لهم عذابٌ أليم موجع، خالدين مخلدين في النار، ليس لهم نصير يدفع عنهم العذاب، ولا ولي يجلب لهم الثواب، وإنما هم في أشد النكال، جزاء لما فعلوا واقترفوا.

﴿٩٢﴾ ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

لن تصلوا إلى أفضل الأعمال وأعظم الأحوال حتى تتصدقوا من أفضل أموالكم وأحبها إلى نفوسكم وأغلاها وأنفسها وتؤثرون ما لله - عز وجل - على ما لأنفسكم، وتختارون في الصدقة ما تصطفون لأنفسكم، فتجعلونه لوجه الله، حينها تحظون بالأجر الجزيل، والثناء الجميل، والله - سبحانه وتعالى - يعلم النيات، ويطلع على الخفيات، فيعلم من تصدق لوجهه، ومن أنفق رياءً وسمعة، فلا يضيع عمل عامل.

﴿٩٣﴾ ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

كل الأطعمة كانت حلالاً لليهود إلا لحوم الإبل وألبانها، فإنها كانت محرمة على يعقوب حرمها على نفسه، فحرمت عليهم تلك الأطعمة نكالاً من الله - سبحانه وتعالى - وعقوبةً لهم؛ لأنهم قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، ونقضوا العهد والميثاق، وحاربوا الله - سبحانه وتعالى - وأولياءه، فحرمهم - سبحانه وتعالى - من بعض الأطعمة، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول لليهود: تعالوا بالتوراة فاقرؤوا عليّ ما ادعيتموه من كذب أن الله - سبحانه - حرم على إبراهيم لحوم الإبل وألبانها؛ لأنكم افتريتم عليه وكذبتم، فلما طالبهم أن يخرجوا من التوراة التحريم الذي زعموه انهزموا وانقلبوا صاغرين، ولم يستطع عالم منهم أن يخرج شيئًا من التوراة يؤيد ما ذهبوا إليه من الكذب، وفيه دليل على صدق النبيّ ﷺ.

﴿٩٤﴾ ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

فمن أتى بالكذب من بعد ظهور الدليل، وقيام الحجة، وصدق الرسول ﷺ؛ من بعد أن ظهر كذبه هو بما ادعاه أن التحريم كان على الرسل السابقين، وليس بسبب عصيان اليهود ولا بنقضهم الميثاق، فمن قال هذا القول فهو مفترٍ على الله - سبحانه وتعالى - كاذب في دعواه، ومن حرّف الكلم وغير المعاني فإنه ظالم لا ينصف، ولا يلتفت إلى البينات، والظالم حظه العذاب، وجزاؤه النكال.

﴿٩٥﴾ ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: صدق الله فيما قال وأنزل وكذبتم - أنتم أيها النصارى - في دعواكم أن إبراهيم كان نصرانيًا، وكذبتم أنتم أيها اليهود في دعواكم أن إبراهيم كان يهوديًا، فليس يهوديّاً ولا نصرانيًا، ولم يكن مشركًا، بل كان حنيفًا مسلمًا موحدًا، وهذا هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - والذي دعا إليه رسول الهدى محمد ﷺ.

﴿٩٦﴾ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

أول مسجد أُقيم في الدنيا هو المسجد الحرام الذي بناه الخليل إبراهيم، وهذا المسجد مباركٌ، فهو كثير الخير، واسع الرزق؛ لما يُجبى إليه من الثمرات، ولما يُقام فيه من التجارة والخير العظيم، وفيه أيضًا فوزٌ في الآخرة لما يحصل فيه من عبادة من صلاة واعتكاف، وحج وعمرة، وذكر لله - عز وجل -، وفيه خير الدنيا وخير الآخرة وفي الصحيح أن «المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس بأربعين سنة».

﴿٩٧﴾ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

في هذا المسجد العظيم علامات واضحات على فضله وشرفه وقدسيته؛ كالكعبة المشرفة، والحجر الأسود، والصفا والمروة، وزمزم وحجر إسماعيل ونحو ذلك من تلك المعالم العظيمة الجليلة، والله - سبحانه - أوجب على الناس من استطاع منهم أن يحج هذا البيت العتيق وهذا من أركان دينه القويم، ومن ترك الحج وهو قادر على الحج فإن الله - سبحانه وتعالى - غنيٌّ عن عبادته، وليس - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى من أعرض من خلقه وأدبر من عباده، وغلّظ - سبحانه وتعالى - الكفر هنا إما أن ترك الحج مع الاستطاعة يؤدي إلى الكفر، أو أن من جحد هذا الركن كفر، وهذا البيت نوه الله بشرفه بأول مساجد الدنيا وبالآيات البينات والعلامات الظاهرات، وبأن جعله -سبحانه وتعالى - أمانًا لمن دخله.

٩٨ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود وللنصارى: لماذا تكذبون بالقرآن وتكفرون برسالتي وقد قامت الدلائل البينة والحجج القاطعة على صدقي فيما أتيت به، والله - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، ومن تكذيبكم، فهو - سبحانه وتعالى - شاهد على ما أرسلني به وشاهد على ما فعلتم وعلى ما كذبتم، وسوف يجازيكم بسوء صنيعكم وفظاعة جرمكم إذا عدتم إليه يوم القيامة.

٩٩ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تصرفون الناس عن الهداية إلى الإسلام؟ ولماذا تشككون في دين الله - سبحانه وتعالى - الذي بعث به محمدًا ﷺ؟ ولماذا تورثون الناس الشبهة وتلقون الكلام المحتمل وتريدون من الناس الانحراف بعد أن دعاهم الله - سبحانه وتعالى - إلى إجابة رسوله ﷺ وأنتم تعلمون حق العلم أن محمدًا ﷺ صادق، وأن دينه حق، وأنه رسول من عند الله، والله - سبحانه وتعالى - لن يترك هذا لكم ولن ينساه، فسوف يجازيكم بهذا الصنيع؛ لأنكم جمعتم بين الضلال في أنفسكم وإضلال العالم.

١٠٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾

يا من آمن واتبع محمدًا واهتدى بهداه، إنكم إن أطعتم طائفة من اليهود والنصارى صرفوكم عن دينكم بشبههم وبإغوائهم، فتقعون في الكفر بعد أن منَّ الله عليكم بالإسلام وأنتم لا تشعرون، إذًا فلا تُصْغُوا إليهم ولا تسمعوا لكلامهم ولا تقبلوا شبههم، فإنهم أعداء لكم يريدون أن تتحولوا عن دينكم الذي أكرمكم الله به بغيًا وحسدًا من عند أنفسهم.

١٠١ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

فكيف تَرْتَدُّون - أيها المؤمنون - عن الإسلام والقرآن يُتلى عليكم بآياته البينات، وبمعجزاته الظاهرات، وفيكم رسول الهدى محمد ﷺ وقد ظهر صدقه، وبانت صحة دعواه، وبانت صحة رسالته، فاعتصموا بالله - سبحانه وتعالى - فإنه من يلتجئ إلى ربه ويفوض الأمر إليه، ويثق به، كفاه عما سواه، وهداه صراطًا سويًا وطريقًا قويمًا لا عوج فيه، وأسعده في الدنيا والآخرة. وفي الآية دليل على أن العبد لا يأمن الفتنة مهما بلغ في التقوى، وأن عليه أن يتزود من الطاعات وأن يكثر من العبادات، وأن يلتجئ بالدعاء في وقت الفتن والمحن، وفيها أنَ من جعل الله له ملاذًا عند الشبهات حفظه منها.

١٠٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدق بالله واتبع رسوله الكريم، عليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل المأمور واجتناب المحظور، وعبادته حق العبادة بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه فلا تكفروه، واحذروا أن تموتوا على غير الإسلام، فإن الإسلام هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - لعباده، ومن اتقى الله - سبحانه وتعالى - وأصلح نيته وأخلص عمله، ثبته الله سبحانه وتعالى، فأماته مسلمًا، وهي الأمنية الغالية، والمطلب العظيم الذي يسعى إليه أولياء الله وعباده الصادقون.

١٠٣ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

واستمسكوا بالإسلام والقرآن وباتباع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا تختلفوا كما اختلف الذين من قبلكم من اليهود والنصارى، وتذكروا نعمة الله عليكم لما أخرجكم من الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، وهداكم صراطًا سويًا، وجمع قلوبكم على الخير، وألف بين أرواحكم بعدما كنتم متباغضين متناحرين، يقتل بعضكم بعضًا،

ويحارب بعضكم بعضًا، فأصبحتم كالأسرة الواحدة، بل أكثر في الأخوَّة من الإخوة في النسب، فصرتم يدًا على من سواكم، وصار أدناكم يسعى بذمة أعلاكم، وصار أكرمكم عند الله أتقاكم، وكنتم قبل ذلك على طرف خطر وهاوية من الفتن والبغي، ومن الضلال والغي، فأخرجكم - سبحانه وتعالى - من تلك الجاهلية وأعد لكم دينًا قويمًا وهداكم صراطًا مستقيمًا، ووفقكم إلى اتباع محمد ﷺ فأنتم كمثل من كان واقفًا على رأس حفرة عظيمة تشتعل نارًا يكاد يسقط فيها فهذا مثل من كان كافرًا ثم أنقذه الله - سبحانه وتعالى - وبهذه الأمثلة ونحوها من الحجج يبين الله لكم - سبحانه وتعالى - الأدلة والبراهين، ويورد عليكم من الآيات ما فيه هدايتكم، وفيه دليل على أن الاطلاع على نصوص الكتاب والسنة يزيد في الإيمان، ويعظم الهداية واليقين عند العبد.

﴿١٠٤﴾ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وعليكم أن تُخَصِّصوا طائفة منكم من أهل العلم والفضل والإحسان للدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وتعليم الناس ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فيأمروا الناس بكل معروف نصَّ عليه الشرع، وتعارف عليه العقلاء من الفضائل والآداب والأخلاق والسلوك، وينهوا عن كل منكر حرَّمه الله - سبحانه وتعالى - ورسوله، وما استقبحه أهل الفطرة والفضلاء، ومن يقمْ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتسبًا، ويكون حسن الطريقة في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - لينًا رفيقًا، ينلْ أعظم المطالب، ويفزْ بأحسن المراتب، فجزاؤه النجاة في الآخرة، والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى.

﴿١٠٥﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

احذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في أقوالهم واختلفوا في قلوبهم من بعد ما جاءتهم الرسل، ونزلت عليهم الكتب فضلّوا على بصيرة، وغووا عن عمد، فجزاء أولئك عذاب عظيم عند الله - سبحانه وتعالى - من الخلود في النار، وغضب الجبار.

﴿١٠٦﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - يوم يُبَيِّضُ الله وجوه من آمن به، وصدّق رسله، فتظهر عليها البهجة والسرور والفرح، ويسوّد الله - سبحانه وتعالى - وجوه من كفر به، وكذب رسله، فيظهر عليها الأسف والكآبة والندامة، والخزي والعار، ويُوبخ الكفار في تلك الدار، فيقال لهم ما لكم كفرتم بعد الآيات البينات؟ وما لكم ارتددتم بعد ظهور الحجج الواضحات؟ الآن تذوقون العذاب الأليم، والعقاب الشديد؛ جزاءً على فعلكم الآثم، وعلى جرائمكم الكبيرة؛ لأنكم عصيتم الله - سبحانه وتعالى - بعد أن ظهر لكم البيان، وسطع لكم البرهان، فذوقوا الخزي والهوان، والنكال والخسران.

﴿١٠٧﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وأما من ظفر بالسعادة من أهل العبادة فهؤلاء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهم في رحمة الله ورحمة الله دائمة لا تنقطع؛ لأنها صفة من صفاته، فهم في الجنة مكرمون، في حبور وسرور ونور، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، ولا يدركهم الهرم ولا العدم ولا السقم؛ جزاءً لعملهم البار في طاعة العزيز الغفار.

﴿١٠٨﴾ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾

هذا الكتاب المنزّل عليك - يا محمد - نزل بالحق، وأتى بالصدق؛ ليهدي به الله من يشاء من عباده، فيبين لهم الحق ليتبعوه، والباطل ليجتنبوه، والله - سبحانه وتعالى - أقام الحجة وأوضح المحجة، وبين وأعذر إلى الناس لئلا يَغْوي غاوٍ بلا برهان، ولئلا يَضِلَّ ضالّ بلا دليل، فالله أرسل الرسول وأنزل الكتاب؛ لبيان الدليل للناس؛ لأنه - سبحانه وتعالى - لا يريد أن يظلم أحدًا من الناس، والظلم أن يعذب أحدًا بلا ذنب، والله منزّه عن ذلك، وليس هو سبحانه بظلاّم للعبيد.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

كل ما في الكون من خلق بما فيها الملائكة والإنس والجن وما يدب على ظهر الأرض، ملك لله الواحد الأحد، لا ينازعه في ملكه أحد، يتصرف في خلقه كيف يشاء، لا خالق ولا رازق ولا إله ولا معبود بحق إلا هو، ومن عدله - سبحانه وتعالى - أنه بيّن الشريعة، ووضّح الطريق، وإليه - سبحانه - تعود الأمور، وينتهي الناس إليه، ومصير الخلائق عنده - جل في علاه - فيقيم يوم الدين فيثيب المحسنين ويعاقب الظالمين.

﴿١١٠﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

أنتم - أيتها الأمة المحمدية - أفضل الأمم عند الله - سبحانه وتعالى - فلا توجد أمة تفضلكم؛ لأنكم تأمرون بكل خير وتنهون عن كل منكر بعدما آمنتم بالله وصدقتم رسوله، فأنتم أمة الشهادة على الناس، وأمة إقامة الحجة على العالم، وأمة الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وأما أهل الكتاب فلو أنهم صدَّقوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - لأسعدهم الله في الدنيا والآخرة، ولأنجاهم من غضبه، ومن أليم عقابه، ولكن لم يصدق منهم إلا القليل؛ كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وأما الكثير فقد استحبوا العمى على الهدى، وخرجوا عن طاعة الله، وحاربوا أولياءه، وتمردوا على شرعه.

﴿١١١﴾ ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾

لا يستطيع أعداؤكم من اليهود وغيرهم إدخال الضرر على المؤمنين؛ لأن الله يحميهم ويتولاهم، إلا أذى يسيرًا يكفِّر الله به من سيئاتهم، كأذى الكلام والتهديد والوعيد والسب والشتم ونحو ذلك، ولكن لو حصلت المقاتلة والمنازلة في الميدان، فإن الله ينصر أولياءه من أهل الإيمان، ويجعل العاقبة لهم، وأما الكفار فيلقي الرعب في قلوبهم، وينزل الهزيمة بهم، ثم يفرون من ساحة القتال، ومن أرض الجهاد، فليس لهم عند الله نصر ولا عزة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة.

﴿١١٢﴾ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

هؤلاء اليهود ضرب الله - عز وجل - عليهم الذل والهوان والحقارة والخسة، فأينما وجُدوا فهم مغلوبون مهزومون مهما انتصروا في بعض الجولات على المؤمنين، ولا يمكن أن يُعصَموا من هذا الذل والهزيمة إلا بعهد يعقدونه بينهم وبين الناس، فيبقون آمنين ما استمر هذا العهد، وهؤلاء اليهود قد رجعوا بغضب شديد من الله - سبحانه وتعالى - ولعنة وخزي بسبب ما فعلوه من نقض الميثاق، وقتل الأنبياء وتكذيب الرسل والعصيان والتحريف في الكتاب والتبديل في النصوص، والله - سبحانه وتعالى - أصابهم بالفقر النفسي والإحباط وخسة الهمم وسخف العزائم، فلا تلقى اليهودي إلا ذليلاً في داخله، يعبد المال ويكدس القناطير المقنطرة ويريد الحياة الدنيا؛ لأنهم كانوا يكذبون بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله - سبحانه وتعالى - بغير حق، وأكثروا من العصيان، فهم عصوا الله - سبحانه وتعالى - في ترك الأوامر واعتدوا بترك النواهي، وتولوا الشيطان وحاربوا الرحمن.

﴿١١٣﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا على طريقة واحدة وعلى مستوىً واحد، فمنهم المؤمن الذي آمن بمحمد ﷺ بعدما بُعث واستقام على أمر الله، وتلا كتابه - سبحانه وتعالى - بالليل قائمًا، وأكثر من عبادة ربه واتقى مولاه.

(١١٤) ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وهؤلاء يؤمنون بالله - سبحانه - وتعالى إيمانًا صادقًا، فيوحدونه بالعبودية، ويفردونه بالألوهية، ويؤمنون باليوم الآخر وما جاء فيه، ويصدقون أنه الحق من عند الله - عز وجل - ويأمرون بكل خير وهدى ورشد، وينهون عن كل شر وردىً وغي، فهم صالحون في أنفسهم، مصلحون لغيرهم، وهم يتسابقون إلى فعل الصالحات، ونوافل العبادات، والأفعال الجميلة والأخلاق النبيلة من كلمة طيبة، وتواضع وجود، ونصر للمظلوم، وإعطاء للفقير، ورحمةٍ لليتيم، وبر للوالدين، وصلة للرحم ونحوها، فهؤلاء حقيقةً هم الفائزون برضوان الله، الناجون من غضب الله، المحظوظون بجوار الله الذين صلحت أحوالهم عند الله.

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

وليطمئن هؤلاء البررة الأخيار بأن ما فعلوه من صلاح وما قدموه من بر، لن يضيع عند الله - سبحانه وتعالى - بل هو محسوب ومدخر لهم، يثابون عليه أعظم الثواب، ويُجازون عليه أحسن الجزاء، والله - سبحانه وتعالى - عالم بمن اتقى وأراده بالعمل وصدق في نيته واجتنب الرياء والسمعة، فمدار الأعمال على تقواه تعالى، بحيث تفعل الطاعة على تقوى منه، وتترك المعصية على تقوى منه.

(١١٦) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

كل كافر لن ينفعه ما جمع من مال، ولا ما ربّى من أبناء، فمهما افتخر بأنه أكثر الناس أموالاً وأولادًا، وأن هذا يَصّرف عنه العذاب، وينال الثواب، فإن هذا من الخطأ العظيم، بل لا ينفع الإنسان إلا إيمانه وعمله الصالح، وهؤلاء الذين ادعوا هذه الدعوى هم من أهل الكتاب والمشركين، فكذَّبهم - سبحانه وتعالى - وأخبر أن هذه الأمور لا تنفعهم شيئًا عند الله، فلا ينالون بها فوزًا ولا ينجون بها من خزي؛ لأنهم خالدون مخلدون في النار لما اقترفوه من غضب الجبار.

(١١٧) ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

مثل ما أعطوا من الأموال وما صرفوه في سبيل الظهور والشهرة، وحب التصدر عند الناس؛ كمثل قوم زرعوا زرعًا وأجهدوا أنفسهم في استصلاحه، فلما نما الزرع وأقبل الثمر، أرسل الله عليه ريحًا عاصفةً قويةً فيها برد مُهلِك فأحرقت هذه الزروع وأبادت هذه الثمار، فهؤلاء جمعوا أعمالاً كثيرة، وأنفقوا أموالاً وفيرة، ولكن أرادوا غير الله، وأشركوا مع الله - سبحانه وتعالى - غيره، فمحق الله أعمالهم، وأبطل سعيهم، وما ظلمهم الله ولكن هم استوجبوا هذا الجزاء بكفرهم بربهم وشركهم بمولاهم وإرادة غيره بالعمل ومحاربة أوليائه، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

(١١٨) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

أيها المؤمنون لا تقرِّبوا المنافقين منكم، وتجعلوا لهم من المكانة والموالاة والمودة والقرب مثل اتخاذ الثوب قربًا والتصاقًا، فهؤلاء المنافقون لا يقصرون في الإفساد والإيذاء، والسعي بالفتنة وتفريق الصف، بل هم مجتهدون في الفساد والإفساد، وهم يتمنون ما يشق عليكم، ويودون هزيمتكم وإيذاءكم، وقد حصلت منهم أفعالٌ قبيحة بدت في كلماتهم من التشفي والاستهزاء والهمز واللمز والسخرية، فكيف تثقون بهم بعدما ظهرت لكم هذه العلامات، وقامت

لكم هذه الدلائل من فلتات ألسنتهم، فكيف بما في صدورهم من الحقد عليكم والحسد لكم، والبغضاء لدينكم، ونية الشر لجماعتكم، ونحن بيّنا لكم هذه الأشياء لتجتنبوها وتكونوا على حذر من مكر هؤلاء المنافقين، فهم أخطر من الكفار الظاهرين، وإذا كانت لكم عقول تفكر، وأفئدة تَتَبَصَّر، فاحذروا هذا الداء الدوي من موالاة المنافق، والرضا به والركون إليه والثقة به واتخاذهم في المناصب وفي الاستشارات، وإظهار الحب لهم والثقة بهم، وهذا أمر محرم عليكم؛ لأنهم أعداء الله ولا يجوز موالاة أعدائه.

﴿١١٩﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

ما لكم أيها المؤمنون تخطئون في محبة هؤلاء وهم أعداء الله وهم لا يحبونكم ويكفرون بشرع الله، آمنتم أنتم برسولهم وبكتابهم وهم كفروا برسولكم وبكتابكم، إذا حضروا عندكم أظهروا لكم الإيمان والتصديق لكم والمتابعة، وإذا انفرد بعضهم ببعض أظهروا الغضب الشديد، والمكر الأكيد، والحقد عليكم وعلى دينكم، وتمنوا زوال النعمة التي نزلت عليكم، وخططوا لأذاكم، والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما تخفي ضمائرهم وما تستتر عليه سرائرهم، وسوف يجازيهم بصنيعهم، وهذا فيه أن على المؤمن أن لا يوالي الكافر مهما أظهر له من المودة إلاّ ولاءً ظاهرا، فلا يتخذه خليلاً ولا صفيًا، ولا يثق بمودته ولا بصداقته، ولا يوالي إلا أولياء الله - سبحانه وتعالى - الذين صدقوا برسوله واتبعوا كتابه.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

وهؤلاء الأعداء إذا نزل بكم خير من نصر وعزة وتوفيق ورخاء وغيث وخصب ورزق واسع وصحة في الأجسام، ساءهم ذلك وأقلقهم وغاظهم؛ لأنهم أعداء حسدة، وإذا حلّت بكم نكبة أو وقعت بكم ملمّة أو أصابكم مرض أو فقر أو هزيمة فرحوا بذلك وسرَّهم ما ساءكم، وأفرحهم ما أزعجكم، وأنتم إذا صبرتم على عداوتهم وكففتم عن صداقتهم فلن يضركم كيدهم ولا يصل إليكم من مكرهم شيء، فالله مبطل كيدهم محبط عملهم متبّرٌ سعيهم، وهو - سبحانه وتعالى - غَالب من غَالَبَه، وهو عالم - سبحانه وتعالى - بكل ما أسروا وكل ما أخفوا من المكايد، وكل ما دبروا من المؤامرات، وسوف يكشف أسرارهم ويهتك أستارهم.

﴿١٢١﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

واذكر - يا محمد - تلك الغزوة العظيمة غزوة أحد يوم خرجت من منزلك تصفُّ المؤمنين للقتال في سبيل الله، وتنزلهم في مواقف القتال وتُهيئهم لمبارزة الكفار، والله سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون، لا تخفى عليه خافية، يعرف الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، والمخلص من المنافق.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

واذكروا حين كادت بنو سلمة وبنو حارثة - وهما بطنان من الأنصار - أن ينخذلا مع عبد الله بن أبّي بن سلول، ويتركا القتال مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولكن الله - سبحانه وتعالى - تولى أمرهم، وجمع شملهم وعصمهم وثبت أقدامهم، وردهم إلى الخير، وعلى الله - سبحانه وتعالى - فلْيُعْتَمدْ في الشدائد من أراد النصر، وبالله فليثقْ من أراد الخير، فإنه - سبحانه وتعالى - نعم المولى ونعم النصير والمعين والظهير - جل في علاه - والذي حصل لبني سلمة وبني حارثة حديث نفس وخطرات من الشيطان بالانهزام والفَرار من أرض المعركة، ولكن الله أيدهم بكلمة ثابتة فثبتوا.

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - غزوة بدر وكيف نصركم الله - سبحانه وتعالى - في تلك الغزوة وأنتم في قلة من العدد، وفي فَقْرٍ من ذات اليد، وفي ضَعْفٍ من الحال، وكان الكفار قرابة الألف وأنتم ثلاث مئة وخمسة عشر مقاتلاً، فأنزل الله الملائكة معكم وأيدكم بنصره، وأنزل عليكم السكينة، وثبت أقدامكم ونصركم على أعدائكم وجعل الفوز والفلاح معكم، فاتقوا الله - سبحانه وتعالى - باتباع رسوله والاهتداء بكتابه واجتماع الشمل على طاعته، لعلكم بتقواكم تؤدون شكر نعمته عليكم بالنصر والتأييد.

﴿١٢٤﴾ ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

واذكروا إذ يقول الرسول ﷺ لأصحابه في بدر: أما يكفيكم أن يؤيدكم الله - سبحانه وتعالى - بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلهم من السماء ينصرونكم ويعينونكم على أعدائه، وهذا مدد عظيم من الملك الكريم.

﴿١٢٥﴾ ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

نعم، هذا العدد - وهو ثلاثة آلاف من الملائكة - يكفيكم إذا اتقيتم الله - سبحانه وتعالى - وثبتم في القتال وصبرتم على مشقة الجهاد، فإذا جاءكم أعداؤكم في هذه الساعة وقد ظهر منكم الصبر والثبات، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة؛ معلَّمين على صنوف القتال، مدربين على مبارزة الرجال، لهم علامات يُعرفون بها، ولهم شارات يتميزون بها ومن شكر الله زاده الله.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وما جعل الله - سبحانه وتعالى - إنزال الملائكة من السماء عليكم إلا بشارةً لكم بالنصر والعز، وتثبيتًا لكم على الإيمان، وإعانة لكم على أعدائه، ولتثقوا في موعود الله - جل في علاه - وليس النصر موقوفًا عليكم ولا على الملائكة، فإن الناصر هو الله وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه عزيز حكيم، عزَّ فقهر، من عزته أنه قهر غيره، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضى وقدّر، فالعزة والقوة والهيبة والسلطان والحكمة سداد الأمر وحسن الاختيار وجميل التدبير.

﴿١٢٧﴾ ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾

ليُهْلِكَ من الذين كفروا طائفة، أو يأسر منهم جماعة، أو يزلزل عَمُودًا من أعمدة الكفر، وهذا الذي تحقق، فقد أهلك الله - عز وجل - من كفار قريش في بدر بعضهم، وأسر المسلمون جماعة منهم، وأما الباقون فعادوا بالخيبة والفشل، فأصابهم الخزي والعار والوهن في الدنيا وفي الآخرة، والعذاب الشديد، وصارت العزة والنصر والدولة والتمكين لمحمد ﷺ وأصحابه، وهذا من لطف الله بالمؤمنين وحسن تدبيره وبالغ حكمته.

﴿١٢٨﴾ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولما شُجَ وجهه ﷺ وكُسرت رباعيته قام يدعو على كفار قريش، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية، والمعنى ليس لك - يا محمد - من أمر هؤلاء وما يحل بهم شيء، فالأمر كله لله - عز وجل - فلا تستطيع هدايتهم ولا تعذيبهم ولا الانتصار عليهم، ولا تستطيع إقناعهم بدينك، وإنما مردهم إلى الله - عز وجل - إن شاء وفّقهم للإيمان، وإن شاء أبقاهم على عبادة الأوثان، والمرد إليه - سبحانه وتعالى - يعذب من يشاء ويتوب على من شاء، وله - سبحانه وتعالى - الحكمة المطلقة، فإن تاب عليهم بإسلامهم ففضل منه، وإن عذبهم بكفرهم فإنهم يستأهلون ذلك ويستحقونه، والله ليس بظلام للعبيد.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

كل ما في السموات وما في الأرض هو لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا فهو - سبحانه وتعالى - يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء، لا معقب لأمره ولا راد لقضائه، وهو - سبحانه وتعالى - له الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، يغفر لمن يشاء ويرحمه، ويعذب من يشاء ويعاقبه، والله - سبحانه وتعالى - غفور واسع الغفران لمن أقبل إليه وأناب، رحيم يتجاوز عن كبائر الذنوب لمن عاد إليه وتاب.

﴿١٣٠﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون يا من صدقتم بكتاب الله واتبعتم رسول الله احذروا أكل الربا، فإنه من أعظم المحرمات، ومن أكبر المعاصي والمخالفات، فلا تتساهلوا به حتى يصل بكم الحال إلى أن تأكلوا المال الكثير متساهلين به وتظنوا أنه قليل؛ لأن الطمع والجشع يتدرج بآكل الربا إلى أن يستولي على أموال الناس، وعلى مقدراتهم وهو لا يشعر، وإنما أتى بهذه الآية؛ لأنه لا يصلح جهاد ولا طاعة إلا بأكل الحلال، وآكل الربا لا تُقبل له دعوة، وترد عليه مسألته كما في الحديث: «**فأنَّى يستجاب له**» ثم قال لهم: وعليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، مثل: الربا ونحوه، فإن في ذلك الفلاح والصلاح والنجاح والفوز الأكبر، والنعيم الأعظم؛ ففي طاعة الله - عز وجل - سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. [*وهذه الآية كانت قبل تحريم الربا في البقرة*].

﴿١٣١﴾ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

واحذروا - أيها المؤمنون - الأعمال التي توصلكم إلى عذاب النار، مثل: أكل الربا الذي لا يأكله إلا كل فاجر كفّار، ومثل: التهاون بأموال الناس فإن النار هيأها الله - عز وجل - لمن كفر به وصدّ عن سبيله، وقد تُوصِل الذنوب الكبيرة إذا توالت بالعبد إلى الكفر، وقد يُعَذَّب صاحب الكبائر بالنار التي أعدها الله للكافرين ولا يخلد في النار؟.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أطيعوا الله ورسوله فيما أُمرتم به وما نهيتم عنه لتتوصلوا إلى رحمة الله ومرضاته، وبالسعادة من غشيته رحمة الله، وبالفوزه وفلاحه.

﴿١٣٣﴾ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

بادروا - أيها المؤمنون - وعجلوا - أيها المتقون - إلى ما يوجب لكم مغفرة ربكم، وما تستحقون به دخول جنة مولاكم جنة عرضها عرض السموات والأرض، والفوز برضوانه ونيل النعيم الذي أعدّه لأوليائه، وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات، فإن من عمل صالحًا وأكل حلالاً وقال خيرًا، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وسابق في الخيرات استحق أن يتجاوز الله - عز وجل - عن سيئاته، وأن يعظم حسناته، ويرفع درجاته في جناته.

﴿١٣٤﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

من صفات هؤلاء الأولياء أنهم يتصدقون في حال الرخاء والشدة والعسر واليسر، والفقر والغنى، فهم لحبهم لما يرضي ربهم عنهم لا يمنعهم الفقر ولا العسر ولا الشدة عن الإنفاق وبذل المال، ولا يحملهم الكبر والطمع والجشع في حال اليسر والرخاء والغنى على إمساك المال، وإنما يغلبون أنفسهم وينفقون في سبيل الله، ومن صفاتهم أنهم يغلبون أنفسهم بالحلم وقت الغضب والغيظ، فلا ينفذون مرادات نفوسهم من التشفي والانتقام، بل ينتصرون عليها ويملكون زمامها، ومن صفاتهم أنهم يسامحون من ظلمهم ويعفون عمن أساء إليهم، ويتجاوزون عنه، فهم يقدمون

العفو طمعًا في عفو الرحمن، ويتركون معاقبة الناس؛ خوفًا من عقاب الديان، وهذا من الإحسان، والله يحب المحسن، وهو الذي يفعل الجميل ويزيد، وهو الذي يتجاوز عمن أساء إليه بل يحسن إلى من أخطأ معه، بل يزيد في إحسانه من إكرام الناس وإيصال النفع إليهم وفي الأثر: «**إن الله أمرني أن أصل من قطعني وأن أعطي من حرمني وأن أعفو عمن ظلمني**».

١٣٥ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم إذا ارتكبوا كبيرةً أو اقترفوا جريرة وظلموا أنفسهم باعتدائهم على غيرهم عادوا إلى ربهم - سبحانه - فذكروا عقابه وما أعدّ لمن عصاه فاستغفروا الله من الخطيئة، وسألوه المغفرة، وندموا على ما فعلوا، وتأسفوا عما اقترفوا، وعلموا أنه لا يغفر الذنب ولا يتجاوز عن الخطأ ولا يعفو عن السيئة إلا الله الواحد الأحد، ولم يداوموا على هذه المعاصي، ويلجُّوا في الخطأ، ويستمروا على الذنب، وينهمكوا في الإجرام، بل أصبح عندهم من القلق والاضطراب والأسف والندم على ما فعلوا ما يوجب معرفتهم بقبح الذنب، ويعلمهم أنه يجب عليهم التوبة، ويعلمهم أن الله يغفر الذنوب جميعًا، فيحملهم ذلك على التوبة والاستغفار والمبادرة إلى طلب العفو من العزيز الغفار.

١٣٦ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

أولئك الأخيار المتقون ثوابهم عند ربهم أن يغفر خطيئاتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ويقبل توبتهم، وزيادةً على ذلك يثيبهم بالخلود في جنات النعيم، والفوز العظيم والنعيم المقيم، وهذه الجنات التي أعدها الله لهم هي بساتين غناء، وحدائق فيحاء، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن جمالها أن الأنهار تجري من تحتها، وفيها من الثمار والأشجار والطعوم والألوان ما الله به عليم، ونِعْمَ والله هذه الجنة ثوابًا لمن عمل، وأجرًا لمن سعى، وجائزةً لمن أحسن.

١٣٧ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

قد سبق قبلكم - أيها الكفار - حوادث وعقوبات ووقائع أنزلها - عز وجل - فيمن كفر به، ومن كذب برسله فسيروا في الأرض وانظروا إلى آثار منازلهم، وإلى بقايا بيوتهم وقراهم كيف عصف بهم الدمار، وأحل بهم الخزي والعار، لعلكم تتعظون بما ترون، وتعتبرون بما تشاهدون، فإن في مناظر بقاياهم عبرة لمن اعتبر، وفي النظر إلى آثارهم عظة لمن اتعظ وادّكر.

١٣٨ ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا الذي وقع في الأمم السابقة، وحل بهم من العقوبات بيان للمؤمنين المستفيدين من هذه العظات، وفيه هدىً لمن اتقى، يدلُّه على الصواب، ويجنبه الخطأ، ويجعله على الدوام منتبهًا لنفسه ومصيره، وفيه - أيضًا - موعظة وزجر لمن له ضمير حيٌّ، وقلب حي، ولمن له عقل واعٍ، فالسعيد من وُعظ بغيره، ومصائب قوم عند قوم فوائد.

١٣٩ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون، لا يصبكم الخور والضعف في نفوسكم، والوهن في هممكم ولا تحزنوا على ما أصابكم في سبيل الله من أذى وتشريد وقتل أو هزيمة فالعاقبة لكم، وأنتم الأعلون المنتصرون الفائزون، فالله مولاكم والقرآن كتابكم، ومحمد رسولكم، والجنة مثواكم، وأهل الكفر لا مولى لهم، والغَيُّ منهجهم، والضلال طريقهم، والنار منقلبهم، فأنتم

- أيها المؤمنون - سعداء في هذه الدنيا؛ لأنكم تحملون الهداية في قلوبكم، والشهادة لقتلاكم، والثواب الجزيل لموتاكم، لا تساوي بينكم وبين الكفار، فأنتم أبرار، أَرْضيتم الواحد القهار، وهم أشرار فجار، لهم سوء الدار، وعذاب العزيز الجبار.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

أيها المؤمنون، إن كان أصابكم أذىً في سبيل الله، أو قتل أو جراح، فقد أصاب الكفار مثلما أصابكم، وهذه سنة الله - عز وجل - فالأيام دول، مرة نصر، ومرة هزيمة، ومرة سرور، ومرة حزن، فالله - عز وجل - يقلب الأيام والليالي بين الأمم، فيومًا تجد الأمة ظافرة قاهرة منتصرة، ويومًا تراها مغلوبةً مهزومة ذليلة، ولكن لله - سبحانه وتعالى - في ذلك حِكَم، فمنها أن الله - سبحانه وتعالى - يمتحن القلوب بهذه المصائب والأزمات والحروب؛ ليتميز المؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - يكرم الشهداء من الأمة المحمدية فيتخذهم أولياء له في جنات النعيم، ومنها أن يظهر عمله - سبحانه وتعالى - في من نصره ومن كفر به ومن صدقه ومن كذبه، وإلا فالله - سبحانه وتعالى - عالم بالأشياء قبل حدوثها، ولكن يظهر علمه فيمن يقع عليه القضاء والقدر من العباد، فمن انحرف عن نصرة الله - عز وجل -، وكذب برسله فهو ظالم، والله لا يحب الظالم؛ لأن الله حرم الظلم على نفسه، وحرمه على غيره، وذم الظالمين وتوعدهم بالجزاء الأليم.

﴿١٤١﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

والله - سبحانه وتعالى - يريد من هذه الأزمات والكرب أن يطهر المؤمنين من الذنوب، وأن يصفيهم من العيوب، وأن ينقيهم من الخطايا بالشدة التي تحصل لهم من هموم وغموم، وأحزان وقتل وأسرٍ وحبس وتشريد وأذىً، ويريد - سبحانه وتعالى - أن يسحق أعداءه الفجار، ويمحق الكفار، فيقتلهم بأيدي أوليائه، وينكل بهم بأنصاره وحزبه، حتى يستقر الحق على أساس متين، ويبقى مهاب الجانب قوي الركن، ويظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

﴿١٤٢﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

ثم أنكر الله - سبحانه وتعالى - على من ظن أنه سوف يدخل الجنة بلا جهاد ولا جلاد، ولا تضحية ولا ابتلاء ولا شدة، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه لابد من التمحيص وظهور علمه - سبحانه وتعالى - فيمن صدق في المجاهدة في سبيله، ومن أنفق ماله وقدم نفسه وسخا بروحه؛ لرفعة كلمة ربه ومولاه، ويظهر علمه - سبحانه وتعالى - وإلا فإنه عالم بكل شيء قبل أن تقع الحوادث، وبعد وقوعها يظهر علمه فيمن صبر واحتسب، وقام بنصرة الحق أشرف قيام، وصمد في وجه الباطل أجلَّ صمود، فهؤلاء يستحقون الجنة برحمة الله، ويستأهلون الفوز بفضله، جزاء بما كانوا يعملون.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

ولقد كنتم قبل المعركة تريدون مواجهة الكفار لتنالوا الشهادة في سبيل الله من قبل أن تجدوا حرَّ الموت وشدته، فالآن قد شاهدتموه بأم أعينكم، ورأيتم القتل في إخوانكم وأشرفتم على الهلاك، فكيف تمنونه من قبل ثم كرهتموه لمَّا حصل، وشقَّ عليكم لمَّا نزل؟!.

﴿١٤٤﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

ليس محمد ﷺ إلا رسول مثل المرسلين قبله، ليس بإله يُعبد ولا برب يوحَّد، يموت كما يموت الناس، أفترونه لو مات أو استشهد رجعتم عن الإسلام، وكفرتم بالله الملك العلام؟ إنه من يرتد منكم عن دينه فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأن مصيره العذاب، وأليم العقاب، والله لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، ولكن من أطاع ربه واتبع رسوله وجاهد في سبيل الله شكر الله له سعيه؛ لأنه يثيب من شكره، ويذكر من ذكره، ويعاقب من كفر به.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

لا يحصل لنفس أن تموت قبل أجلها أو تتأخر، فالأجل مسمى والعمر محدود، والزمن معدود، والذي يطلب بجهاده الشهرة والثناء والغنيمة فإنه سوف يجدها، ولكن ليس له في الآخرة حظ من الثواب ولا نصيب من الأجر، ومن يطلب بجهاده وجه الله وإعلاء كلمة الله فأجره موفور، وسعيه مشكور، وذنبه مغفور مع نعيم في الجنة وقرة عين في الخلد، والله لا يخيب سعي من أحسن، ولا عمل من استقام.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وكم من نبي جاهد معه عدد كثير من أتباعه، وعلماء ربانيون من أنصاره، فما أصابهم خور ولا ضعف ولا فشل، وما أصابتهم ذلة ولا خضوع للكفار، بل صمدوا وثبتوا وضحوا حتى انتصروا، والله يحب من صبر ويثيب من شكر؛ والصابر مرحوم، والجازع محروم.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

كانوا إذا حضروا المعركة في سبيل الله سألوا الله أن يغفر ذنوبهم وما اقترفوه من خطايا وسيئات، وسألوه تثبيت الأقدام، والنصر على الكفار الطغام عبدة الأصنام. وفيه فضل الدعاء وقت القتال، وأن الذنوب سبب الفشل، وأنه ينبغي التوبة والاستغفار لمن أراد الانتصار على الكفار.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

فأكرمهم الله بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة، فَعِزٌّ عاجل وفوز آجل، والله يحب من أحسن العمل، حيث جمع بين الإخلاص لربه والاتباع لرسله، فأدى الطاعة على أكمل وجه، واجتنب المعصية خوفًا من ربه.

﴿١٤٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾

إنكم - أيها المؤمنون - لو اتبعتم هؤلاء الكفار لضللتم؛ لأنهم يزيّنون لكم الباطل ويصدونكم عن الحق فهم لا يريدون خيرًا، وإذا أطعتموهم في غيهم رجعتم وقد خسرتم الدنيا والآخرة، فلا عز ولا نصر لكم في دنياكم ولا فوز ولا ثواب في أخراكم.

﴿١٥٠﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾

ليس الكفار هم أولياؤكم بل وليكم الله وحده - سبحانه وتعالى - وهو الذي يؤيدكم وينصركم ويثبت أقدامكم، فأطيعوه واتبعوا رسوله وآمنوا بوعده ووعيده.

﴿١٥١﴾ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾

سننزل في قلوب الكفار الخوف والقلق والاضطراب؛ لأنهم أشركوا بربهم بلا دليل ولا برهان، ولم يأمرهم ربهم - سبحانه وتعالى - بما فعلوه، بل خالفوا أمره وفعلوا معاصيه وكفروا بكتابه، وكذبوا رسله، فلهم في الدنيا الخزي والعار، ولهم في الآخرة عذاب السعير ولبئس المصير.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

والله - سبحانه وتعالى - أنجز لكم ما وعد من النصر على الكفار، فصارت لكم الغلبة عليهم وكنتم تحصدونهم بالسيوف وتقتلونهم قتلاً، ولكنه لما أصاب بعضكم الوهن وحب الدنيا في أُحُد من إرادة الغنيمة، وقع الخلل والخور والجبن في الجيش، فوقعت الهزيمة من بعد ما كاد النصر يحل، ومن بعد ما كانت الغلبة لكم عليهم، فأراد - سبحانه وتعالى - أن يمتحن إيمانكم، وأن يمحص قلوبكم، وأن تكون لكم هذه عبرة ودرسًا، فصرفكم عن الكفار، ثم عاد سبحانه وتعالى عليكم بالعفو، فغفر لمن فرَّ منكم أو انهزم، والله فضله واسع، وأحق العباد بفضله هم عباده المؤمنون، فهو قريب منهم يغفر زَلَلهم، ويسدد خَلَلهم، ويعافي عِلَلهم.

﴿١٥٣﴾ ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - إذ تفرون يوم أحد صاعدين في الجبل منهزمين تاركين رسول الله ﷺ خلفكم من شدة الخوف والهلع، والرسول - عليه الصلاة والسلام - يناديكم أن اثبتوا، إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، أنا رسول الله، فجازاكم الله - سبحانه وتعالى - بفعلكم هذا غمًّا وجدتموه في صدروكم بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم لأمره، ومن أجل ألا تأسفوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولما أصابكم من الهزيمة، فالغم يكفّر السيئات، والحزن يمحو الخطيئات، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على أعمالكم، سامع لأصواتكم عالم بأحوالكم، يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

ثم أرسل الله - سبحانه وتعالى - بعد هذا الغم الشديد سكينة وطمأنينة أنزلها على قلوبكم بعد الفَرَق والقلق، فكان الواحد من المسلمين ينعس والسيف يسقط من يده، وأما المنافقون فقد طاشت عقولهم، ودهشت أذهانهم، وفارق النوم عيونهم لجزعهم وهلعهم وعدم سكينتهم، والمنافقون يقولون لم نُستَشر في مثل هذا الأمر من مقاتلة الكفار، ولو كان لنا رأي وقُبِل كلامنا ما كنا في هذا الموقف الضنك، ولا في هذا الخوف الشديد؛ ليشكِّكوا في أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفي دين الله - عز وجل -، وهم مع ذلك يبطنون في أنفسهم الكفر والنفاق والكره لله ولرسوله وللمؤمنين، ويظهرون المسايرة والمجاملة في الظاهر، فردّ الله - سبحانه وتعالى - عليهم بأنهم لو كانوا في

بيوتهم لأخرج الله - سبحانه وتعالى - من حلّت منيته وانتهى عمره ونفذ القضاء فيه فقُتل في أي مكان قدّره - سبحانه وتعالى - فلا بيته يمنعه، ولا حصنه يحميه، وبمثل هذه الوقائع والحوادث يختبر الله سبحانه وتعالى إيمان المؤمن ونفاق المنافق، فينقي قلوب المؤمنين، ويطهرها من الأمراض، ومن الشكوك والريب، ويفضح الله - سبحانه وتعالى - المنافقين، ويظهر ما في قلوبهم من الكره للإسلام والبغض لأوليائه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما في السرائر ويطلع على ما في الضمائر لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عليه سر.

﴿١٥٥﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

إنّ الذين فرّوا منكم - أيها المؤمنون - يوم أحد إنّما استدرجهم الشيطان، وألقى في قلوبهم الرعب بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، لكن الله لما علم بإيمانهم تجاوز عنهم وغفر ذنبهم وسامح خطأهم؛ لأنه غفور واسع المغفرة لمن استغفره، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهلهم حتى يتوبوا وهذا جزاء المؤمنين عند خطئهم، وأما المنافق فإنه يؤاخذ بالكبيرة والصغيرة لسوء معتقده.

﴿١٥٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

أيها المؤمنون، احذروا أن تشابهوا من كفر من أهل النفاق والريب والذين يقولون لأصحابهم إذا خرجوا للتجارة أو سافروا للجهاد لو كانوا في بيوتهم معنا ما أدركهم الموت، وما قُتلوا؛ ليكون هذا الأمر غمًا في قلوبهم وحسرةً في نفوسهم؛ لأنه غير صحيح، فالله قدّر المقادير وقدّر وقت موت الميت، وقتل المقتول لا يتقدم ساعة ولا يتأخر ساعة؛ لأنه - سبحانه - المحيي والمميت وحده، فكل شيء بقضاء وقدر وبأجل مسمى، ولكن أراد الله أن يدخل عليهم الكآبة والحسرة فجعلهم يترددون حتى في مسائل القضاء والقدر، والله - سبحانه وتعالى - عليمٌ بما يكنُّ هؤلاء، وما يخفون وما يسرون، فهو فاضح أمرهم كاشف نياتهم.

﴿١٥٧﴾ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

أيها المؤمنون، إن قُتلتم في سبيل الله وإعلاء كلمته أو متم على فراشكم وأنتم تنوون نصرة دين الله، فالله يغفر ذنوبكم ويجزل ثوابكم ويرفع درجاتكم، وهذا الفوز العظيم الذي ينتظركم والنعيم المقيم الذي هو أمامكم خير مما يجمع أعداء الله ومما يدخرون، فأنتم تكسبون الثناء الحسن والعز والنصر في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

﴿١٥٨﴾ ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وسواء مات الميت منكم على فراشه، أو قُتل في ساحة المعركة، فإن مصيره إلى الله - سبحانه وتعالى - فعليه أن يخلص نيته وأن يصدق في عمله وأن يراقب ما بينه وبين ربه، فما دام أن المرجع إليه فينبغي أن تقدم مرضاته، وأن يحذر غضبه، وأن يُطاع رسوله ﷺ.

﴿١٥٩﴾ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

فبسبب الرحمة التي أودعها الله فيك، والعطف الذي جعله الله في قلبك كنت لينًا قريبًا سهلاً مع المؤمنين، فعفوت عن خطئهم، وسترت خللهم، وتجاوزت عن زللهم، مع أنهم خالفوا أمرك ولم يصمدوا معك في القتال، وهذه رحمةٌ من الله - سبحانه وتعالى - أعطاك إياها، ولو كنت - أيها النبي الكريم - فظًا في قولك، غليظ المعاملة لتفرق عنك

أصحابك، ولابتعدوا عن نصرتك، ولكنه لحسن خلقك جمع الله عليك القلوب، وألَّف عليك الأرواح، فعليك بالعفو عن المؤمنين عمَّا بدر منهم من تقصير في مخالفة أمرك، واطلب من ربك أن يغفر لهم الخطايا والذنوب، فإنه غفَّار رحيم، وشاور أصحابك في كل أمرٍ ذي بال ليشعروا بقربك منهم؛ ولتكون قدوةً للأمة من بعدك، فإذا جدّ الجد واجتمع رأيك على أمر فاعزم وتقدم وتوكل على ربك - سبحانه وتعالى - فعليه وحده الاعتماد، وعليه التكلان، فإنه يحب من يفوض الأمر إليه، ويعتمد عليه، ويثق بحسن اختياره جل في علاه.

﴿١٦٠﴾ ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

إذا كتب الله لكم النصر فلن يغلبكم كافر، ولن يهزمكم عدو، وإن كتب الله عليكم الهزيمة فلن ينصركم أحد من الناس، فعليكم بطلب النصر من عنده - سبحانه وتعالى - وذلك بالتوكل عليه والثقة بوعده والرضا بدينه، حينها تُنصرون في دنياكم، وتُثابون في الآخرة؛ لأن الذي يملك أمر الدنيا وأمر الآخرة هو الله وحده سبحانه وتعالى.

﴿١٦١﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

ما ينبغي لنبي ولا يحق له أن يخفي شيئًا من الغنيمة أو يدخرها لنفسه كما قال بعض المنافقين لما فُقدت في يوم بدر بعض الأموال، قالوا: لعل النبي ﷺ أخذها، وحاشاه بل هو البريء المطهر المعصوم ﷺ؛ لأن الغلول ينافي الأمانة وهو نوع من الخيانة، فكيف يخون النبي بمال وعرض زائل وقد استأمنه الله - سبحانه وتعالى - على الرسالة السماوية والدعوة الربانية، ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أن من يخون فإنه يأتي يوم القيامة بجريرته وجريمته على رؤوس الأشهاد فيفضحه ربه أمام العالمين، ثم يوفيه الله حسابه وعقابه يوم يوفّي - سبحانه - كل نفس بما كسبت من صلاح أو فساد، وهو - سبحانه وتعالى - عادل لا يظلم، فلا يضيف لمسيء سيئات لم يعملها، ولا يبخس محسنًا حسنات قد عملها، بل هناك القسطاس المستقيم والوزن القويم، وعدل الرحمن الرحيم.

﴿١٦٢﴾ ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

هل من سَلك ما يحبه الله - سبحانه وتعالى - من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ والعمل بما يحبه واجتناب ما يكرهه كمن عاد بالخسران واللعنة والغضب بسبب كفره ونفاقه وإلحاده في دنياه، فله في الدنيا الخزي والعار، وفي الآخرة مأواه النار وبئس المصير.

﴿١٦٣﴾ ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾

الناس متفاوتون عند الله - عز وجل - فالمؤمنون درجات في جنات ونعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وفي النار دركات للمنافقين والكفار والمعرضين عن دين الله - عز وجل - والله بصير بعمل كل عامل، فهو - سبحانه وتعالى - ينزّل كل إنسان منزلته في الآخرة على حسب عمله، لا يزيد ولا ينقص، بعدلٍ وعلمٍ وحكمةٍ، فما على العبد إلا أن يعمل وأن يخلص عمله ولا يخشى أن يُهضم يوم القيامة أو يُظلم.

﴿١٦٤﴾ ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

لقد تفضل الله - سبحانه وتعالى - فأكرم المسلمين بمبعث محمد - عليه الصلاة والسلام - من جنسهم ومن قبائلهم؛ ليقتدوا به ويكون أسوةً لهم يقرأ عليهم آيات الله - عز وجل - ويبين لهم الأحكام ويدلهم على أشرف الآداب، ويطهر قلوبهم من الرجس والدنس والشك والريبة، ويعلمهم القرآن والسنة بعدما كانوا يتخبطون في الظلمات، ويتعثرون في المخالفات، فلم يكن لهم نور يهدي، ولا إمام يُقتدى به، ولا شرع يُتحاكم إليه، بل كانوا في غيّ عظيم وفي ضلال مبين.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

أحين وقعت عليكم هزيمة أحد قلتم كيف نُهزم وقد وُعدنا بالنصر ونحن على الحق؟ وكيف يغلبنا المشركون وهم على الباطل؟ فقل لهم يا محمد: سبب الهزيمة منكم أنتم؛ لأنكم عصيتم أمري ولم تعملوا بما وجهتكم به من المكْث على جبل الرماة فَهُزِمْتم، فاذكروا ولاتنسوا أنكم لما وجهتكم إليه طلبت منكم الصبر على جبل أحد، وأنتم قد هزمتم الأعداء يوم بدر، فإن كان قُتل منكم سبعون في أحد، فقد قتلتم أنتم منهم في بدر سبعين، وأسرتم سبعين، فأنتم نلتم منهم ضعف ما نالوه منكم، وكل شيء بقدر من الله -سبحانه وتعالى- لأنه قدير لا يعجزه شيء، حكيم لا عوج في أمره ولا اختلال بصير بعباده.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

والذي أصابكم في أحد بسبب عصيانكم للرسول ﷺ هو بتقدير الله فكل شيء بقضاء وقدر، لحكمةٍ أرادها -سبحانه وتعالى- حتى يظهر علمه في المؤمنين، ويتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فيظهر جهاد المجاهد، وزيغ الزائغ، ويبين كل شيء على حقيقته، ويبطل الادعاء.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾

وليظهر علمه -سبحانه وتعالى- في أهل النفاق المردة، وليتبين موقفهم ولينكشف أمرهم، الذين دعاهم رسول الهدى ﷺ للجهاد في سبيل الله في أحد أو الدفاع عن المدينة إن لم يقاتلوا دينًا، فليدافعوا من أجل دنياهم، فكذبوا على الله -عز وجل- وقالوا: لو أننا نتيقن أن هناك قتالاً لخرجنا مع الرسول ﷺ، ولكنهم كذبوا في ذلك فهم يعلمون أن هناك قتالاً، وهم لن يخرجوا لو تحقق لهم الأمر وهم أقرب للكفر، وليسوا أقرب للإيمان، فالإيمان منهم براء؛ لأن المؤمن لا يخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يشق عصا المسلمين، ولا يتخلف عن الجهاد، ولا يوالي أعداء الله، وهؤلاء يتحدثون بألسنتهم كلامًا يخالف ما يعتقدونه في قلوبهم، فظاهرهم غير باطنهم وعلانيتهم غير سرهم، فهم يظهرون الملاينة والكلام الحسن، ويبطنون الخبث والمكر والكيد للإسلام والمسلمين، ولكن الله كاشف أمرهم، وفاضح سرائرهم وهاتك أسرارهم، لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة -جل في علاه-.

﴿١٦٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

هؤلاء المنافقون يوصون إخوانهم إما من المسلمين أو من المنافقين، ويقعدون عن القتال هم، ويقولون لمن خرج مجاهدًا في سبيل الله بائعًا نفسه من الله مضحيًا لنصرة دين الله، لو أطاعنا هذا الخارج إلى المعركة ما قُتل هناك، ولو أخذ برأينا ما ذهبت نفسه هدرًا، فكأنهم تحصنوا من الموت، وامتنعوا من الفناء، فردّ الله -سبحانه وتعالى- على مقولتهم القبيحة فقال: فأنتم إن كنتم صادقين أنكم سَلِمْتُم من الموت في المعركة فادفعوا عن أنفسكم الموت وأنتم في بيوتكم، لكنكم لا تستطيعون، وسوف يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، فهل تستطيعون دفع الموت عن أحد أو تأخير الموت عن أحد، وأنتم لا تستطيعون تأخيره عن أنفسكم؟.

﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾

ولا يظنن أحدٌ من الناس أن من قُتل من أجل إعلاء كلمة الله -عز وجل- شهيدًا في المعركة أنه ميت، بل له حياة مُخَصَّصَةٌ في البرزخ يُنعّم فيها بجوار رب العالمين في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، فهو مسرور فرح بمقعده يُرزق من ثمر الجنة، ومن أنواع أطعمتها ومن شرابها، فله إكرام مَخْصوص، وله إنعامٌ من الله -عز وجل-؛ لأنه بذل نفسه في سبيل الله.

﴿١٧٠﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء الشهداء مسرورون بما وفقهم الله - سبحانه وتعالى - من بيع أنفسهم منه، ومن نيل الشهادة، ونيل الكرامة في جنات النعيم، وفي المقام العالي الآمن، وفي الفوز الأكبر، ويفرحون أيضًا لإخوانهم المؤمنين في الدنيا، ويتمنون أن ينالوا الشهادة مثل ما نالوها هم ليشاركوهم في الأجر وفي الثواب العظيم وفي المقام الكريم في جنات النعيم، وهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم، فلا يخافون من أهوال القيامة، فقد أمَّن الله خوفهم، وربط على قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وبشرهم بالأمن الدائم والسرور والحبور، ولا يحزنون من عواقب سيئات يخافون منها، أو من مغبة خطايا سلفت منهم، بل إن الله حطَّ خطاياهم، وغفر ذنوبهم، وعفا عنهم لتضحيتهم في سبيل الله.

﴿١٧١﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هؤلاء الشهداء فرحون بما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى - من هذا النعيم من قرة العين، وبهجة الروح، وحسن الحال، ونضرة الوجه، ورغد العيش، والإقامة الدائمة مع الشباب والصحة، ومع النظر إلى وجهه الكريم - جل في علاه - فالفضل فضله، والنعيم نعيمه - سبحانه وتعالى - لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يحبط عمل عامل، ولا يضيع سعيه إذا صدق في إيمانه وأخلص في عمله، بل يدخر الله - سبحانه وتعالى - له أعظم مما فعل، ويجعل عاقبته حميدة في جواره.

﴿١٧٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هؤلاء المؤمنون المجاهدون في سبيل الله الذين حضروا أحدًا، لهم الأجر الدائم، فمَيِّتُهم شهيد مقيم في جنات النعيم، وحَيُّهم في عزة ينتظر النصر والثواب من الله، الذين استجابوا لله ولرسوله من بعدما أصابتهم الجراحات والبلاء والشِّدّة، وبعدما أصابتهم الهزيمة فدعاهم الرسول ﷺ لمناجزة المشركين لما بلغه أنهم اجتمعوا في حمراء الأسد، فهب المسلمون من ساعتهم، وكان الرجل يحمل أخاه الجريح، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - طائعين لأمره بعدما زُلزلوا زلزالاً شديدًا، فهؤلاء الذين أحسنوا الاستجابة وامتثال الأمر والمسارعة إلى إجابة داعي الجهاد، واتقوا الله - سبحانه وتعالى - في ترك مخالفة الرسول ﷺ والخروج على جماعة المؤمنين، هؤلاء لهم أجرٌ عظيم عند الله، فمن أجرهم تكفير سيئاتهم، ومضاعفة حسناتهم، ورفع درجاتهم مع الأمن في الجنة وحسن الإقامة ودوام النعيم الأبدي الأزلي في جوار أرحم الراحمين.

﴿١٧٣﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

هؤلاء المؤمنون الصادقون المجاهدون قال لهم بعض المرجفين من الموالين لكفار قريش يخوفونهم: إن قريشًا قد جمعوا جموعهم، وقد أعدوا عدتهم، وأقبلوا في خيل ورجل يريدون غزوكم، فانتبهوا واحذروا؛ ليدخلوا الرعب في قلوب المؤمنين، فما كان من المؤمنين إلا أن زادهم الله - سبحانه وتعالى - على إيمانهم إيمانًا، وعلى صدقهم تصديقًا، وعلى ثباتهم ثباتًا، فثبتوا أعظم ثبات، ووقفوا أحسن موقف، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - والتجؤوا إلى الله فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فالله يكفينا من كل عدو، والله يمنعنا من كل غاز، والله ينصرنا من كل محارب، فنحن جنده، ونحن حزبه، ونحن معه، ولن نُغلب والله معنًا، ولن نُهزم والله نصيرنا، ولن نخذل والله يؤيِّدنا.

﴿١٧٤﴾ ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

فبعد أن قالوا هذه الكلمة العظيمة واتكلوا على الله - سبحانه وتعالى - رجعوا بالخير والسلام، والأجر والكرامة، ولم يصبهم أذىً، ولم يتعرضوا لمكروه، ولم يلقوا عدوًا؛ لأنهم أحسنوا الاستجابة لأمر الله، وكل مستجيب لله يحسن

الله عاقبته، ويجعل الدائرة على عدوّه، وهؤلاء اتبعوا ما أمر الله به - سبحانه وتعالى - فإن رضا الله - عز وجل - في اتباع رسوله المرسل من عنده، والله - عز وجل - يمنُّ على من يهتدي بهداه، ومن يقتدي برسوله ﷺ بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، فإن عاش عاش عزيزًا، وإن مات مات مرحومًا مكرمًا منعّمًا في جنات النعيم.

﴿١٧٥﴾ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ويا أيها المؤمنون، إن هذه التخويفات، وهذا الإرجاف إنما هو من الشيطان، يخوفكم بأوليائه، ويرسل أتباعه وأعوانه يبثون الرعب في قلوب المؤمنين، فاصمدوا وثقوا بالله - عز وجل - وتوكلوا عليه وفوضوا الأمر إليه، ولا تخافوا أتباع الشيطان ولا أولياءه، وعليكم بخوف الواحد الأحد عزيز الجانب القوي الذي لا يُغالب، الذي بيده الضر والنفع، والموت والحياة، فإن المؤمن الصادق لا يخاف غير الله - عز وجل - فإن الناس لا ينفعون ولا يضرون، ولا يُحيون ولا يُميتون، ولا يَصِلُون ولا يَقْطَعون، ولا يُعْطُون ولا يَمْنَعون إلا بإذن الله.

﴿١٧٦﴾ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ولا تحزن - أيها الرسول - من هؤلاء الذين يذهبون إلى الكفر ويتعمقون في الضلالة ويستمرون في الغواية، فإنهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يدخلوا الضرر على الله - سبحانه وتعالى - فالله غني عن العباد لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما أراد الله - سبحانه وتعالى - يوم كتب عليهم الكفر ألا يدخر لهم ثوابًا في الآخرة من النعيم ودخول الجنة، ولا يكتب لهم في الدنيا عزةً ولا نصرًا، وإنما فعل بهم هذا الفعل ليمحقهم ويُذلهم ويكرم المؤمنين على أيديهم، وادخر - أيضًا - لهم عذابًا مؤلمًا فظيعًا في الآخرة جزاء ما فعلوا من القبيح وما قدموا من الإساءة.

﴿١٧٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هؤلاء المنافقون الذين باعوا الإيمان واستعاضوا به الكفر، ضررهم على أنفسهم، وكيدهم يعود عليهم، والله - عز وجل - لن يتضرر من إدبار مدبر، ولا من كفر كافر، ولا من نفاق منافق، فله العزة المطلقة، الغنى المطلق - جل في علاه - وما يضرون إلا أنفسهم وسوف يجزيهم على سوء هذا الصنيع وعلى قبح هذا التصرف منهم.

﴿١٧٨﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

لا يظنَّن الكفار أنّنا إذا أمهلناهم في هذه الحياة ولم نُعاجل لهم العقوبة، ولم نقدم لهم النكال والعذاب أنه لخير لهم عندنا، أو أننا ادخرنا لهم الثواب، بل نريد من تأخير العقوبة بهم وإمهالهم أن يبقوا أطول مدة ليزدادوا من الخطايا، ويتكثَّروا من السيئات، ثم ينقلبوا إلينا في الآخرة لننزل بهم أشد أنواع العقوبات، وأفظع النكال في نار الجحيم.

﴿١٧٩﴾ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ما كان الله ليترك المخلصين منكم - أيّها المؤمنون - على ما أنتم عليه حتي يتميز المخلص الصادق من المنافق الكاذب، بما يوحيه إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، والله - عز وجل - لا يطلع العباد على الأسرار التي لا يعلمها إلا هو، ولكنه - سبحانه وتعالى - يكتب الابتلاءات والمحن والشدائد، فيظهر هذا من هذا، فلولا البلاء لما عُرف الأتقياء من الأشقياء، ولولا البلاء لما اطّلع المؤمنون على نفاق المنافقين، والله - سبحانه وتعالى - لا يكشف الغيب لكل أحد من عباده، ولكنه يختار - سبحانه - من عباده رسلاً يطلعهم على بعض الغيب، وعلى أسرار القضاء والقدر، فيخبرون أقوامهم بشيء من ذلك، فأنتم ليس عليكم مطالعة الغيب واكتشاف أسرار القدرة، لكن عليكم الإيمان بالله - عز

وجل - واتباع رسوله ﷺ والتسليم لأمره - سبحانه - والجهاد في سبيله، وأنتم إذا فعلتم الواجب عليكم من الإيمان وفعل المأمور وترك المحظور والقيام لله - سبحانه وتعالى - حق القيام بما يحبه ويرضاه، فالله - سبحانه وتعالى - يدّخر لكم الثواب الجزيل، والأجر العظيم في جواره ومع أوليائه.

﴿١٨٠﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ولا يظن الأغنياء البخلاء الذين يمسكون أيديهم ولا ينفقون في سبيل الله ولا في وجوه الخير أن إمساكهم للمال ينفعهم ويحصنهم من النكبات والنوازل، بل إن هذا الإمساك هو مقت عليهم وعذاب لهم في الآخرة، ومحق لبركة رزقهم وقسوة في قلوبهم، وسيجعل الله - سبحانه وتعالى - هذا المال طوقًا في عنق الواحد منهم من النكال والعذاب يلازمه في نار جهنم بسبب بخله وإمساكه وتقتيره على نفسه، وإلا فإن الواحد الأحد له ما في السموات والأرض ليس بحاجة إلى إنفاق هؤلاء ولا إلى صدقتهم، فهو رب السموات والأرض ومالك ما فيهما، وهو يرث - سبحانه وتعالى - كل غني وفقير؛ لأنه يرث الأرض ومن عليها، فسوف يحاسبهم بهذه الأموال؛ لأنه - سبحانه وتعالى - خبير بما اقترفوه، عليم بما فعلوه، مطلع على ما صنعوه.

﴿١٨١﴾ ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

سمع الله مقالة اليهود الشنيعة القبيحة - قاتلهم الله - التي قالوا فيها: إن الله فقير؛ ولذلك يطلب القرض منا، ويدعونا للإنفاق، ولو كان غنيًا لاستغنى عن أموالنا ولم يطلب منا أن نتصدق وأن ننفق، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه سوف يسجل عليهم هذه المقولة القبيحة، وهذه الكلمة النابية؛ ليحاسبهم بها، وأيضًا سوف يأخذهم بما فعلوه في سابق الزمان من قتلهم لأنبياء الله - عز وجل -، وسوف يوردهم النار ليحرق أجسامهم التي تَرَبَّت على السحت، ويمزق أوصالهم التي نبتت بالمال الخبيث، فالله - سبحانه وتعالى - له ما في السموات والأرض، وهو الغني عن كل أحد، ولكنه أراد من العبد أن يتصدق على نفسه بشيء من المال يعطيه الفقير والمحتاج والمسكين.

﴿١٨٢﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

وهذا العذاب الذي يحل بهؤلاء الفجرة من اليهود وأمثالهم إنما هو بسوء صنيعهم، وبما فعلوه في الدنيا من التكذيب ونكث العهد ونقض الميثاق، وقتل الأنبياء والبخل بالمال، وأكل السحت وقول الكذب وتناول الرشوة والتزوير في الكتاب، والتحريف للكلام والتبديل للمعاني؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، وليس في حاجة أن يوقع العقاب بمن لا يستأهله، فإن العباد عباده، فَتَقِيُّهم مأجور، وشقيهم معذب مهان؛ حكمةً من الباري - جل في علاه - ليوفي كل نفسٍ بما كسبت.

﴿١٨٣﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

هؤلاء اليهود افتروا على الله فرية وكذبوا على الله كذبة فقالوا: نحن لا نؤمن لأي رسول يُبعث إلا إذا أتانا بعلامة واضحة، وهذه العلامة أن يأتينا بكبش أو بناقة أو ببقرة فيقدمها فتنزل نار من السماء، فتحرق هذا القربان الذي قدّمه، فردّ الله عليهم - سبحانه وتعالى - قولهم بأن هذا كذب وافتراء، فلم يعهد الله لهم ذلك، ولم يوصهم به، ولم ينزل عليهم هذا في أي كتاب من كتبه، ثم قال لهم: قل لهم يا محمد: قد جاءكم من قبلي رسلٌ بالبينات

الواضحات والآيات الباهرات والدلالات والمعجزات، وأتوكم - أيضًا - بما طلبتم من القرابين، وما ذكرتم من العلامات، ولكنكم كذبتموهم وقتلتموهم وكفرتم بما أنزل عليهم، فَلِمَ فعلتم هذا الفعل بأنبيائكم وتطلبون من غير أنبيائكم هذه العلامات؟ إنكم إذًا مفترون على الله، كاذبون على دينه، خارجون عن طاعته.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

فإن ردوا رسالتك - يا محمد - وأعرضوا عن دينك وكذبوا بما بُعثت به، فقد سبقك رسل جاؤوا بالآيات البينات والمعجزات، وجاؤوا بالكتب السماوية، وأتوهم بالهدى الواضح والحِكَم النيّرة والمواعظ المؤثرة، ولكنهم كذبوهم، وحاربوهم وقتلوهم، فأنت لست بدعًا في هذا الطريق، ولست أول من كُذب فاصبر واحتسب.

﴿١٨٥﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

كل نفسٍ ستذوق كأس الموت لا محالة، ولا استثناء أحد من ذلك، وهذا فيه وعد للمؤمن بأن الله سوف يثيبه بعد وفاته، ووعيد للمكذب الفاجر بأن الله سوف يعاقبه بعد موته، وسوف توفون - أيها الناس - أجور أعمالكم بعد موتكم إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر، فليست هذه الدنيا دارًا لإثابة المطيع ومعاقبة العاصي، وإنما الدار هناك حيث يوفي الله - سبحانه وتعالى - كل نفسٍ ما كسبت، وإلا فالدنيا دار قصيرة حقيرة، لا يمكن أن تكون زمنًا لتنعم المؤمنين، ولا معاقبة الكافرين، والآخرة خير وأبقى، وفيها الحياة الحقيقية فمن بُعِّد عن نار جهنم فقد حصل على الفوز العظيم والرضوان الكبير، وليس الفوز هو ما يدعيه بعض الجهلاء والسفهاء من أنه نيل المناصب العالية والأموال الكثيرة، وجمع الحطام الفاني والتباهي في هذه الدار بزينتها وزخرفها وكثرة الأولاد وسعة الدور والقصور والشهرة والجاه عند الناس، فليست هذه الدار إلا أحلام نائم، وخيال عابر زائل، وأمانٍ مضمحلة، وثوان معدودة.

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

لتمتحنن بالمصائب والحوادث والكوارث في أموالكم بالنفقة الواجبة، وبالجائحات السماوية وبالآفات الأرضية وبذهاب هذه الأموال بالسرقات والتلف والإحراق وغيره؛ ليعلم - سبحانه وتعالى - من يصبر ومن يحتسب، وسوف تُبْلَون في أنفسكم بالأذى الشديد والابتلاء الأكيد والمحن والزلازل والفتن؛ ليثبت من يثبت على حق، وينحرف من ينحرف عن بينة، وليمحص الله الذين آمنوا ويظهر نفاق المنافق، وكفر الكافر حكمةً من الله وسنة ماضية، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى، ومن وثَنِيِّي العرب من الاستهزاء والسخرية والتكذيب والعناد والمحادة والصدود عن دينكم ومحاربتكم وتأليب الناس عليكم، والتحزب ضدكم، فإن صبرتم بالثبات على دينكم، وأداء ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم عنه واتقيتم بفعل المأمور واجتناب المحظور، فهذا الذي يعينكم على إصلاح أنفسكم وعلى قوام أمركم وعلى الهمة التي يمنحها الله لكم بسبب هذا الصبر والتقوى والعزيمة الماضية التي تثمرها الطاعات، وتنتجها العبادات، حينها تنتصرون بإذن الله على كل عدو لكم.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

واذكروا يوم أخذ الله - سبحانه وتعالى - العهد الوثيق والميثاق الغليظ على اليهود والنصارى أن يبينوا للناس الكتب التي نزلت إليهم من التوراة والإنجيل، ويظهر للناس حكم الله - سبحانه وتعالى - في هذه الكتب من الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، والحلال والحرام، وأُمِرُوا أن يبينوا ما أوتوه تعليمًا وفتيا وقضاءً ولا يجحدوا شيئًا منها ولا يخفوا أمرًا من أمورها، ولكنهم طرحوا ذلك ونبذوه خلف ظهورهم كالمعْرِض وكالمستهزئ بأمر الله - سبحانه وتعالى - واستعاضوا مكان هذا الكتاب المقدس ثمنًا بخسًا رخيصًا حقيرًا تافهًا من حطام الدنيا الزائل المضمحل، فبئس - والله - ما استعاضوا به بدل الرفعة بالعلم والإمامة في الدين والثناء عند الله وعند خلقه والمكانة الباقية والذكر الحسن والخلود في جنات النعيم.

١٨٨ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

لا تعتقد أن من فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تعتقد أنه بعيد عن عذاب الله وأخذه، فإن بعضهم يفرح بما فعل ولو كان خطأً ولو كان معصيةً ويتبجح بذلك عند الناس مثلما فعل اليهود لما سألهم الرسول ﷺ عن شيء مما أنزل عليهم فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وخرجوا من عنده وقد أَرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه ﷺ فباؤوا بخسران من الله عظيم، وربما دخل في ذلك من فرح بمديح الناس وطلب المنزلة عندهم، وسعى إلى الجاه لديهم، وإلى المكانة في صدروهم، فيمحق الله سعيه ويبطل عمله؛ لأنه أراد غير الله سبحانه وتعالى.

١٨٩ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والأمر لله - سبحانه وتعالى - فكل ما في السموات والأرض ملك له، فهو يتصرف فيهما كيف يشاء خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً ومجازاةً ومحاسبةً، فالواجب أن يُقصد هو بالعمل وأن يُعبد وحده، وهو - سبحانه وتعالى - قادرٌ على كل شيء ولا يغلبه أمر ولا يعجزه شيء ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فهذا الإله الذي هذا وصفه حقيق أنْ يُخاف، وأنْ يُتقى، وأن يُخشى، وأن يُعامل وحده، وأن يُخلص له السعي، ولا يُطلب الثناء ولا الحمد ولا الجزاء من غيره - جل في علاه -.

١٩٠ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

في خلق السموات المرتفعة، وهذا السقف المحفوظ وما فيه من آيات بينات من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات مع ارتفاع هذا البناء وحسن نظامه وروعة بنائه، وكذلك الأرض وبسطها للناس وتسويتها، وإيجاد الجبال فيها والروابي والهضاب والبحار الواسعة والمحيطات الكبيرة وشق الأنهار، - وأيضًا - خلق الليل إذا أقبل بظلامه وغطى العالم بسربال، وما فيه من آيات كالقمر والنجوم والكواكب، والنهار الذي تطلع فيه الشمس ببهائها وصفائها وإشراقها، كل هذا دلالات لمن أراد أن يتفكر في خلق الله، وأنْ ينظر في بديع صُنع الله، ولكن لا يعتبر بذلك إلا من كان له عقل مفكر، وبصيرة حية، وضمير واعٍ، أما ميت القلب، خاوي الضمير، أعمى البصيرة فلا ينتفع من هذه الآيات لأنه لا لبّ له ولا عقل ولا بصيرة، بل هو كالبهيمة التي لا يطمع منها التفكر ولا النظر في صنع الله وآياته.

١٩١ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

وهؤلاء الذين يتفكرون في خلق الله هم الذين يذكرونه ويداومون على ذكره بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، يذكرونه قيامًا وهم يمشون في مصالحهم وفي أسواقهم وطرقاتهم، ويذكرونه إذا جلسوا في مجالسهم ومساجدهم ودروسهم ومناسباتهم الخاصة والعامة، ومن حبهم له - سبحانه - أنهم يذكرونه - أيضًا - وهم على جنوبهم مستقبلين النوم في وقت الراحة بعد التعب والإعياء، ومع ذلك لم يشغلهم شاغل عن ذكره ويديمون التدبر لآيات الله وخلقه في

السموات والأرض، فينظرون إلى كل آية بصفتها دليلاً من أدلة القدرة، وينظرون إلى كل مخلوق على أنه سطر في كتاب المعجزة يدل على الباري - سبحانه وتعالى - فهذه الكائنات إنما هي حروف ناطقة، وشهادات باقية على عظمة العظيم - جل في علاه - وعلى قدرته وحكمته وبديع صنعه، وهم يقولون إذا رأوا ذلك وجلين خائفين: يا ربنا نشهد أنك ما خلقت هذا عبثًا وباطلاً، بل أوجدت هذا الخلق لحكمة، وأبدعته بقدرة، وصورته لمقصد تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد، فتباركت يا ربنا، فنسألك أن توفقنا للعمل الصالح الذي نفعل فيه ما أمرتنا به، ونجتنب ما نهيتنا عنه، ليوصلنا ذلك إلى أن تنجينا من عذاب النار، وتحمينا من غضبك ومن سوء عقابك.

﴿١٩٢﴾ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾

وهم ينادون ربهم وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ويشتكون إليه أن من أدخله - سبحانه وتعالى - ناره فقد أخزاه وأذله وأبطل سعيه، فهم يستعيذون من ذلك ويرجونه - سبحانه وتعالى - وهو الغفار أن يجنبهم النار؛ لأن من دخل النار فقد استوجب غضب الجبار، فليس له ناصر ينصره فيدفع عنه العذاب، ولا ولي يجلب له النفع، وكل من أشرك بالله فهو ظالم، وكل ظالم مستحق للعقوبة بلا شك.

﴿١٩٣﴾ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾

ويا ربنا وخالقنا ورازقنا إننا سمعنا محمد بن عبدالله ﷺ ينادي بالقرآن، ويدعو إلى دينك وإلى توحيدك وإلى طاعتك فاستجبنا له، وسمعنا كلامه واقتدينا بسنّته واهتدينا بهداه واتبعنا طريقه؛ فنسألك يا ربنا أن تستر منا العيوب، وأن تغفر لنا الذنوب، وأن تكفّر عنا السيئات والجرائم، وكل ما اقترفنا، ونسألك أن تختم لنا بخير، وأن تثبتنا على الحق حتى تتوفانا مع أوليائك وأتباع رسلك، وقد رضيت عنا وختمت لنا بخير وتوفيتنا على الملة.

﴿١٩٤﴾ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾

ونسألك يا ربنا أن تحقق لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من الثواب الجزيل، وغفران الذنب والتجاوز عن الخطيئة وجوارك في جنات النعيم، والفوز بالنظر إلى وجهك الكريم، ولا تفضحنا يا ربنا ولا تذلنا ولا تهنا على رؤوس الأشهاد يوم تجمع الأولين والآخرين، إنك يا ربنا لا تخلف ما وعدت، فإنه لا أصدق منك قيلاً، ولا أحسن منك حديثًا، فنحن ننتظر ما وعدتنا به، ونستنجز ما أخبرت به، وننتظر ما ذكرته في كتابك وعلى لسان رسولك ﷺ.

﴿١٩٥﴾ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

فقبل الله دعوتهم وحقق أمنيتهم ولبّى سؤالهم وأخبرهم - سبحانه وتعالى - أنه لن يترك سعي ساع ولا إثابة محسن، بل ادخر لهم الأجر العظيم، والنعيم المقيم سواء كانوا رجالاً أو نساءً، فإن النساء شقائق الرجال، والرجل والمرأة متعاونان على طاعة الله - عز وجل - من الإيمان والهجرة والدعوة والجهاد، فالرجال مثل النساء، والنساء مثل الرجال؛ لأنهما من آدم وحواء، وكلهم شُرِّفوا بالرسالة، فالذين خرجوا من أوطانهم من الرجال والنساء، وفارقوا ديارهم وأهلهم وأموالهم ومراتع شبابهم، ومغاني صباهم، وطُردوا من بيوتهم، وأُوذوا في سمعتهم وفي أعراضهم، ونُكّل بهم وعُذّبوا بسبب دينهم، ونالهم من الأسر والطرد والتشريد والقتل والجراحات وقاتلوا أعداء الله - سبحانه وتعالى - وثبتوا في المعارك، وصمدوا في الأزمات وقُتلوا في سبيل الله شهداء، فقد أقسم - سبحانه وتعالى - أن يكفّر عنهم سيئاتهم، ويغفر زلاتهم، ويمحو خطيئاتهم، ثم يدخلهم جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فينعمهم هناك، ويثيبهم في داره التي بناها بيده، وهذا الأمر هو جائزة لهم على حسن عملهم وعلى كريم سعيهم، والله - سبحانه وتعالى - يثيب أحسن الثواب، وأجلّ العطاء، وأعظم الهبات، فإن عطاءه لا يشبهه عطاء، وهبته لا تعادلها هبة.

﴿١٩٦﴾ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾

لا تنخدع بما يظهر لك من حال الكفار وتقلبهم في المناصب والأموال والنعم واللذات العاجلة والشهوات الزائلة، والأماني الخدّاعة، فإن هذه دنيا لا يُغتر بها ولا يوثق بها، ومتاع الكافر منها كمتاع الدابة، وكحياة البهيمة، ليس إلاَّ!!

﴿١٩٧﴾ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

وهذا كله الذي يمر به الكفار إنما هو وقت قصير، ومتاع زائل حقير لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله - عز وجل - في جنات النعيم، فإن هؤلاء الكفار يقضون شهواتهم في عجل وهم مستعجلون، ويمرون بالحياة مرورًا ثم يأوون في الآخرة إلى نار جهنم التي مهدوها بسوء أعمالهم، وفرشوها بقبائح صنيعهم؛ ليجدوا سعيهم القبيح، وعملهم الخبيث ينتظرهم هناك.

﴿١٩٨﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾

أما الذين خافوا ربهم وراقبوه وعملوا بما أحبه وتركوا ما أسخطه، فهؤلاء لهم نعيم مقيم، ولهم مقام طيب آمن في جوار ربهم من الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، والقصور والدور والأنهار، وهم مع ذلك مخلدون لا يخشون انتقالاً ولا يخافون هرمًا ولا ينتظرون سقمًا ولا يجدون نصبًا ولا تعبًا ولا مشقة، وهذا كله مهيأ لهم وجائزة من الله - سبحانه وتعالى - وهبة من عنده - جل في علاه -؛ لأنه لما وفقهم إلى العمل ادخر لهم أحسن الجوائز، وأعظم الهبات، وما عنده - سبحانه وتعالى - خير مما يحصل للكفار في الدنيا من الربح في الأسفار، وجمع الدرهم والدينار، والتباهي بالقصور وسكنى الدور، ولكنه غرور.

﴿١٩٩﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

من اليهود ومن النصارى فريق يؤمن بالله - عز وجل - وما أُنزل على رسلهم وما أُنزل على محمد ﷺ فيجمعون بين الإيمان بأنبيائهم وبالنبي العربي الأمي ﷺ وهم مع ذلك خائفون من ربهم، موقنون بموعوده عاملون بشرعه ولا يستبدلون دين الله - عز وجل - بعرض فان من الدنيا، ولا بثمن بخس من الحياة، لا من مناصبها ولا من أموالها، بل ثابتون على دينهم صادقون في طاعة ربهم متبعون لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لا يبخسهم الله -سبحانه وتعالى - أجرهم، ولا يضيع سعيهم، بل لهم أجر عظيم عند ربهم، فالله - سبحانه وتعالى - يرحمهم في ذاك اليوم العظيم، وهو سريع الحساب، وهو يحاسب العدد الكبير في الوقت القصير، وقد اطلع على أعمالهم وعلم نياتهم - جل في علاه - وهذا من العدل في الحكم، فالواجب على الإنسان أن يفرق في الحكم بين المهتدي والضال، والمصيب والمخطئ، فإن الله - عز وجل - استثنى بعض أهل الكتاب حكمةً منه وعدلاً لا إله إلا هو، لأنهم أصبحوا في عداد المسلمين.

﴿٢٠٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

أيها المؤمنون، عليكم بالصبر على الطاعات وأدائها على أكمل وجه، والصبر عن الشهوات والمعاصي والمخالفات باجتنابها والتوبة منها، والصبر على أقدار الله المؤلمة وعلى قضائه المرِّ بحسن العبودية واحتساب الأجر وعدم السخط والجزع، وعليكم بمصابرة الأعداء ومنازلتهم ومغالبتهم ومراغمتهم في المعارك وساحات القتال، وفي ميادين النضال العلمي والردود عليهم ومجاهدتهم، وعليكم - أيضًا - بالمرابطة في ثغور الجهاد العملية، والمرابطة في أوقات العبادات، وملازمة المسجد للصلوات الخمس كما أخبر ﷺ أن ذلك رباط لمَّا ذكر الوضوء وكثرة الخطى للمساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فمن صبر وصابر ورابط فاز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، وأعطاه الله أشرف الجوائز وأعظم الهبات ووصل إلى أعلى المراتب، ونال أسمى المطالب، بسبب أنه تعبَّد الله - عز وجل - في المواطن كلها، في موقف الطاعة وفي موقف المعصية، وفي موقف الابتلاء، فكان من عباد الله المخلصين، ومن أوليائه الصادقين جعلنا الله منهم.